بوحر للنشر والتوزيع

أمير تاج السر



من نافذة صغيرة

من نافذة صغيرة

أمير تاج السر



عنوان الكتاب:
من نافذة صغيرة
اسم المؤلف:

أمير تاج السر
التصنيف العمري:
E
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-707-60-8
رقم إذن الطباعة:
MC-10-01-3374654

نحتاجك بلا رصيد

منذ نحو عامين تقريبا، كنت ظللت أتلقى لفترة طويلة نسبيا، رنات متقطعة على هاتفي، أو رنات ضائعة كما تسمى، وقد كتبتها مرة في رواية لي: أحتاج إليك بلا رصيد، وكان ذلك موضوعا طرحته بجدية في الرواية، من ضمن المواضيع الأخرى، بوصفه موضوعا غاية في الغرابة، أن يريدك شخص ما، ويلح عليك أن تكلمه أنت برصيدك، لا أن يتكلم برصيده.

كانت الرنات المتقطعة، التي ظللت أتلقاها نحو أسبوع، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، تبدو غير مألوفة حتى في إطار الغرابة، وأعني غرابة: أحتاج إليك بلا رصيد، ففي العادة يلح المتصل المتقطع ليوم أو نصف يوم. ويصمت، ليعاود الاتصال ربما بعد أيام أو أشهر أو لا يتصل مرة أخرى على الإطلاق، ويتوجه باحتياجه، بلا رصيد لشخص آخر، أكثر لهفة، وانفعالا، ومستعدا للاتصال بأي رنة متقطعة تصله.

في البداية ظننت أنها رنات لواحد من تلك الأرقام المسمومة التي ترغمك على الخسارة، وتبث أصوات غنج مفتعل لنساء لسن حقيقيات، ولن يصبحن حقيقيات أبدا، ولكن يرتدين فقرات مدفوعة الأجر، يجرمن بها، وفي الغالب ثمة حصاد كثير، والإغواء سلعة رائجة، وهناك من يسعى إليها حتى لو لم تسع إليه، وهناك من يدمن تلك الحفر العميقة، في طرق الغواية، ولا يود الخروج منها أبدا. كنت أطالع الرقم الذي يرن بتقطع، وأستغرب، أمد يدي للاتصال، وأخاف من الشراك كلها، ليست شراك الإغواء وحدها، ولكن شراك الكتابة والثقافة، أيضا، ويوجد كثيرون يحصلون على أرقام المؤلفين، أو أي أرقام لأي أشخاص عشوائيا، ويظلون أدوات إرهاق واستنزاف للوقت بلا أي رحمة، وكان ثمة شرك علقت فيه منذ عشر سنوات، وما زلت عالقا فيه حتى الآن، حين اتصلت برقم متقطع، كان يلح، وخرج لي صوت هادئ، بارد النبرات، لطالب ثانوي، كما عرفت بعد ذلك، كان يطلب مني دعما ماليا، وهاتفا نقالا بلا أي سابق معرفة، وما زال يطلب الدعم، برغم تقدمه في العمر، وعثوره على وظيفة، وزوجة، ويتابع الهواتف وتطورها، وانتقل مع الناس من هاتف النوكيا الكلاسيكي، إلى السامسونج، والآن آي فون 7 بلا أي تنازل. كانت وما تزال قصة تصلح للكتابة، لكني استثمرت جزءا صغيرا منها، في كتاب، وأخبرت المتصل المخضرم، في آخر تبادل للرسائل معه، أنني كتبته، فبدا مندهشا، وهو يردد: هل أنت كاتب؟ ظننتك رجل أعمال، وبدت لي تلك الجملة المندهشة، نهاية جيدة لتطفل دام عشر سنوات، وغالبا تحسر الشاب على وقت طويل أنفقه يطارد وهما.

الآن أنا غارق في الفضول، أمد يدي لأضغط، وأتذكر الكوارث، أمدها وأسحبها بسرعة، لتأتيني فجأة رسالة من الرقم، تقول: "لماذا لا تتصل؟، رننت لك أكثر من عشرين مرة، ولا تريد الاتصال".

كان سؤالا فظا في عدم لياقته، وينتمي فعلا لقواعد أحتاج إليك بلا رصيد، فالمتصل المتقطع يفترض أنني مقصر، حين لم أتصل برقم ظل يلح في طلبي، بلا اتصال حقيقي، كنت منزعجا جدا، وكتبت: من أنت أولا؟، ولماذا تريدني ثانيا؟

كتب: نحن صحيفة يومية، صدرت حديثا، ونريد استكتابك في زاوية أسبوعية، اتصل لنخبرك التفاصيل.

كانت صدمة بلا شك، أن ترن صحيفة يومية، بلا رصيد لكاتب، من أجل أن يتصل ويحصل على خبر استكتابه، صدمة حقيقية، لأن المتعارف عليه، وفي سياق احترام الكتابة، واحترام والكتاب، حتى لو كانوا مبتدئين، وكتابتهم في بداياتها، أن تتم دعوتهم لأي نشاط في أي مكان، أو دعوتهم ليكتبوا في صحيفة أو مجلة، بطريقة كريمة تكفل للكاتب حقوقه، وللجهة الداعية، هيبتها ومكانتها سواء أكانت جهة حكومية في بلد ما أو جهة أهلية، ولم نسمع من قبل أن محررا أو رئيس تحرير، ركض بلا رصيد خلف كاتب حتى جره لصحيفته، واستكتبه قسرا. الكتابة ليست سلعة رائجة كثيرا، هذا معروف، والصفحات الثقافية، من الصفحات التي يسهل إلغاؤها أو الاستغناء عن خدماتها، بسهولة شديدة، إذا امتلأت الصحيفة بالإعلانات المربحة تجاريا، ويمكن لأي خبر ثقافي، مثل خبر صدور رواية أو ديوان شعر، وخبر إقامة أمسية أو ندوة هنا وهناك، أن ينتظر أسابيع وشهورا بلا أي إحساس بأن ثمة ضررا ما قد يحدث، بعكس أخبار الأسهم مثلا التي تنشر على مدار الساعة وأخبار المنافسات الرياضية التي ترسم كاملة، في الصحف بما في ذلك وجوه الحسناوات اللائي قد يكن حضرنها، راسمات أعلام بلادهن على الوجوه، وشاهدت في ملعب أوروبي شهير، زرته منذ عامين، بإلحاح من ولدي الصغير، قوافل سياحية، تهبط من الحافلات، ومئات الناس يدفعون بسخاء للحصول على صورة للاعب كرة قدم، أو التقاط صور مع الهياكل المرصوصة للاعبي الفرق المهمة.

لم أستطع الرد على الشخص المكلف بدعوة الاستكتاب هذه، ظللت أحدق في رسائله، فترة، وأفكر: هل توجد حقوق حقا لدى صحيفة تستكتب أحدا بلا رصيد؟، هل سأكفأ على زاويتي إن وافقت، أم تصبح زاوية تطوعية، مكافأتها: شكرا جزيلا، أو ربما حتى من دون شكر، وفي تلك اللحظة تذكرت فجأة أن ثمة استكتابا حدث معي منذ سنوات حين جرجرت إلى الكتابة في صحيفة محلية، في بلدي لمدة عام، ولم أحصل حتى على تلك الـ"شكرا" السهلة البسيطة، أكثر من ذلك، خسرت مبلغا كبيرا في ذلك الوقت، كان تأمينا للبنك الذي فتحت لي فيه الصحيفة حسابا، من المفترض أن تغذيه شهريا، وتركته هكذا نهبا لقوانين البنك يستقطع منه كل شهر حصة، حتى انتهى كله بعد مرور عام من كسله، برغم نشاط الكتابة المستمر، أكثر من ذلك، خاطبني البنك بصرامة، يطالبني بسداد مبلغ أدين له به.

أخيرا رددت على الرسالة، كتبت كلاما كثيرا فيه استياء، ولوم، وأخيرا اعتذار عن الكتابة بسبب انشغالاتي وأعبائي الكثيرة، وجاءني الرد بجملة: رجاء الاتصال، لنفهم ما هي انشغالاتك وأعباؤك التي تمنعك من الكتابة لدينا.

صدمة أخرى، ولأول مرة أطالب بتفسير أمور حياتية خاصة، برصيدي لدى شركة الاتصال، لجهة تحتاجني بلا رصيد.

أظنه الزمن المؤلم، الذي أضرت آلامه بكل شيء من حولنا. الكتاب حائط قصير، في المسألة التجارية، وعليهم أن يبتهجوا كثيرا ويرقصوا إن نشرت لهم صحيفة، أو وجدت كتبهم طريقا ما لتنشر، هذه نظرية يؤمن بها الكثيرون ممن يوظفوا الكتابة لمصلحتهم، لكن ليس لدرجة، نحتاجك بلا رصيد التي تعرضت لها. إنها إعادة قسرية لسنوات طويلة مضت، إلى أيام

البدايات، حين كان لا بد من الانصياع لقوانين إذلال الإبداع، من أجل البقاء في ساحة الإبداع، كأن شيئا لم يتغير، وكأن العمر لم يتقدم، والكتابة أيضا لم تتقدم، وما تزال واقفة عند رواية: كرمكول والحصانة القروية، رواية البداية التي لم تكن سوى قصيدة طويلة.

علاقة الكاتب بأعماله

سؤال وردني مؤخرا عن علاقة الكاتب بنصوصه المنجزة، هل هي علاقة حميمة بمعنى أن الكاتب يصادق تلك النصوص، ويقضي معها بعض الوقت؟ أم علاقة سطحية غالبا تنتهي عن حد الإنجاز، حيث تشق النصوص طريقها نحو القراءة أو الإهمال، ويعود الكاتب إلى أفكاره بحثا عن فكرة جديدة؟

تقول القارئة التي طرحت هذا السؤال، وهي أيضا كاتبة في بداية الطريق، إن الأمر مهم، خاصة انها تعيش وسط شخصيات تكتبها الآن، ولا تعرف إلى متى سيظل هذا التواصل؟

حقيقة ليس كل الكتاب يحملون الجينات نفسها، ويملكون الطقوس الكتابية نفسها، وتعرفنا على كتاب تستفزهم أفكار صغيرة جدا، ويكتبون باستفزازها روائع، بينما آخرون لا يكتبون إلا لو غرقوا في بحر أفكار عظيم، ولموا تفاصيل كثيرة من هنا وهناك. أيضا أوقات الكتابة إن كانت يومية أو متقطعة؟ ليلية أو نهارية، وعدد الساعات إن كان قليلا أو كثيرا، والإضافات المصاحبة للكتابة من قهوة وشاي أو تدخين وهكذا، ودائما ثمة فضول ما من قراء تعجبهم رواية ما، فيسرعون إلى الكاتب سائلين عن كيفية كتابتها وزمن الكتابة وما استخدم من طقوس لإنجاز النص.

العلاقة بين الكاتب ونصوصه بناء على ذلك، تدخل في مسألة الطقوس، وتصبح جزءا من نسيجها، هي تختلف من شخص الى آخر، فبينما نجد من يلتصق بالفعل بنصوصه المنشورة يتلذذ بمصاحبة شخصياتها ومحاورتهم وربما استخلاص أفكار جديدة ينجز بها أجزاء أخرى، نجد من يركل تلك النصوص، يبعدها تماما عن ذهنه ويسعى لحوار مع شخصيات جديدة يبتكرها، ويحاول أن يصنع بها نصا.

هذا في ما يختص بالنصوص المنشورة، لكن في المقابل توجد نصوص منجزة لم تنشر لسبب أو لآخر، ولعل إحساس الكاتب تجاهها لم يكن جيدا أو هي نفسها لم تكن شغوفة لتمنح الكاتب طعما، أو لونا يحسه جديرا بالاحتفاء، فتركها هكذا مبهمة، ونسمع كثيرا عن أدباء ماتوا وفي خزائنهم أو حواسيبهم نصوص تركوها مغطاة، على أمل أن تظل كذلك، لكن غالبا يسعى الورثة لنشرها، دون احترام لرغبة كاتبها الراحل، وقد أشرت مرات عدة إلى فداحة هذا السلوك، وأنها قد تخل باحترام القراء لكاتب رحل شامخا وترك ما يظنه أقل من مستوى كتابته، ولا بأس بالطبع أن يتم نشر الأعمال التي يرسلها الكاتب لدور النشر بنفسه، ويموت قبل أن يبت الناشرون في أمرها، هذه تدخل من ضمن الأعمال التي رضي عنها كاتبها.

هذه النصوص التي تركت عمدا، كما قلت هي نصوص مهملة ومن المحتمل أن يعود اليها الكاتب من حين لآخر، محاولا إيقاظ بعض الشغف تجاهها، وهذا قد يحدث لكن في الغالب لا يحدث أبدا. ولدي روايتان من هذا الصنف، تركت الأولى لأن لغتها بدت أكثر تعقيدا من اللغة التي تعودتها في كتابتي، والشخصيات كانت تقاوم محاولات جعلها شخصيات رزينة، قد يحبها القراء مثل شخصية صاحب مطعم لم يتنازل عن غروره حتى وهو يحتضر، وولد من الريف، فرّ إلى العاصمة بلا أي خبرة، ولم يتطور فنيا في النص، والثانية كتبتها في بداياتي أيام كنت أكتب بلغة الشعر وأوشكت على نشرها مرات كثيرة، لكنني خفت من عدم التفاعل معها من قراء أعرفهم ويعرفوني، إضافة الى الحوادث أو الحكايات المتعددة في النص شديدة التعقيد بالنسبة لقصة تحكي عن الانقلابات العسكرية، وكيف تضيع الشعوب بوهم تصديق ما يسمى بالوطنية والمبادئ..

هذان النصان وغيرهما من المقاطع التي كتبتها عبر سنوات طويلة، ولم أكملها، أعتبر علاقتي بها الآن سطحية للغاية، ومنذ سنوات لم أقترب منها، أو أفكر بشأنها بالنسبة للأعمال المنشورة، أعتقد أنني قوي العلاقة ببعضها، تلك التي أحس بقوة أنها لم تنته، وأن في أحشائها تتمات، أنا لن أكتبها لكن أتخيلها فقط أثناء الاسترخاء، غالبا أعدل شيئا أو أضيف أو

أحذف، لكن فقط في الخيال، ولم أقم بالتدخل الفعلي، وإعادة الكتابة، إلا في نصين فقط هما "اشتهاء" التي تتحدث عن امرأة ريفية، محبة للرجال، و"منتجع الساحرات" قصة اللاجئة الإريترية أبيا تسفاي، واللص عبد القيوم دليل، والاثنان من نصوصي المفضلة التي أُعرف أبطالها في الواقع، وتعاملت معهم وشهدت كبواتهم أيضا. وربما يفسر هذا اهتمامي بهما وإعادة قراءتهما مرارا واستخلاص أفكار جديدة بشأنهما. ولأن الفكرة، أي فكرة إعادة كتابة نصوص مكتوبة أصلا تبدو غبية عند البعض، فقد لامني كثيرون على ذلك، لكن لم أهتم كثيرا ولو طرأ على بالي أن أعيد الكرة مرة أخرى سأعيدها.

سؤال يكمل السؤال الأول، وهو من قارئ أيضا: هل توجد لدى الروائي شخصيات معينة هو اخترعها، يتمنى أن يكتبها دائما؟

نعم بالتأكيد والشخصيات تتراوح بين متقنة التفاصيل، إلى تلك المكتوبة بسرعة ولديّ شخصيات عدة، تمنيت أن أعود إليها، مثل شخصية الرزينة في "مهر الصياح" وعلي جرجار في "العطر الفرنسي" وحورية الحضرمية في "اشتهاء" وكنت دائما معجبا بشخصية أورسولا في "مئة عام من العزلة" لماركيز، وتمنيت لو امتد إشعاعها في روايات أخرى للكاتب. ومنذ أيام التقيت مصادفة بطبيبة بيطرية من كولومبيا، كانت تعشق الأدب والفنون، وتقرأ بالإسبانية والإنكليزية، تحدثنا عن الإبداع وتذكرنا كثيرا من المبدعين، وكان لا بد من ذكر ماركيز بوصفه من شخصيات كولومبيا المشعة، قلت لها ما أقرب شخصية إليك من شخصياته، ردت: أورسولا.

الزمن الجميل دائما

منذ سنوات كنت حضرت في الخرطوم، محاضرة لحيدر إبراهيم علي، أستاذ علم الاجتماع العظيم، تحدث فيها عن أشياء كثيرة كانت وما زالت تؤرق هاجس السودانيين، بل وازداد الهاجس ضراوة بتلك الحرب الأخيرة، التي لا طائل منها، والتي قضت فعلا على الأخضر واليابس وحولت شعبا يحب الاستقرار، والتأقلم مع كل أحوال بلاده، إلى شعب نازح، مرهق، باك وشاك، لا يعرف حتى كيف يفكر.

وفي زيارة أخيرة لي للقاهرة، التقيت بسودانيين كثيرين، منهم مبدعون كانوا حريصين تماما على الوجود الدائم في السودان وعدم مغادرته لأي سبب، وقد غادروا بالفعل، ويحاولون الإمساك بالحياة بعيدا عن منابع إبداعهم.

حيدر إبراهيم تحدث في تلك المحاضرة من ضمن ما تحدث عنه، ما أسماه بوهم الزمن الجميل، أي أن الناس كلما تقدموا في العمر، وخفت تهافتهم على الحياة، وربما قلّت حيلتهم في الاستمتاع بها، بعد اكتسابهم لكثير من العلل، يتحدثون عن الزمن الجميل الذي مضى. والحقيقة ليس هناك زمن جميل أبدا، إنما استعادة للذكريات القديمة، ليس إلا، ومحاولة صناعة زمن مواز قديم، ينتعش به الشخص.

أنا أختلف مع حيدر إبراهيم في هذا المعنى، فالذكريات المستعادة تبدو شخصية إلى أبعد حد وغالبا محصورة بين أفراد الأسرة والأصدقاء، لكن الجو المحيط بالإنسان، والذي تجدد بالفعل عبر السنوات، وغالبا إلى الأسوأ بالرغم من التطور الظاهر، يجعل من الممكن تسمية الزمن القديم، بالزمن الجميل. وهذا السياق ليس خاصا بالسودان، وإنما في كل الدنيا، ودائما ما نجد صورا لفنانين قدامى، كتب تحتها، صورة من الزمن الجميل، ونجد صورا لمدينة كانت هادئة وبلا زحام، وشوارعها تظللها الأشجار، وكتب عليها: من الزمن الجميل. وفي بلاد ساد فيها الهوس، وقمعت فيها النساء مثلا أفغانستان، نجد من يضع صورا للمرأة الأفغانية، وهي تشارك بأناقة في كل نشاطات بلادها الوطنية والاجتماعية في زمن ما قبل الهوس، وكالعادة كتب تحت الصور: من الزمن الجميل. لقد عشنا في مدينة بورتسودان، أيام طفولتنا وبداية الشباب، وعشنا في مدينة الأبيض في إقليم كردفان زمنا، ذلك الذي بدأت فيه كتابة الشعر، وأستطيع أن أذكر مئة شيء مبهج، كان يشكل زمنا جميلا بالفعل، ولا يمكن التغاضي عنه خاصة حين تنظر لما يعيشه أبناؤك في هذا الزمن الذي لا أنكر تطوره على مستوى الاتصال والمعلوماتية وإمكانية العثور على إبرة في كومة من القش، لكن بالقطع ليس زمنا جميلا. وربما يكون جميلا للجيل الحالي، إن عاش زمنا مستقبليا أكثر رعبا منه.

الحياة كانت بسيطة وغير معقدة بالمرة، حين تجرح يدك أو ساقك، تذهب مباشرة للمستشفى المفتوح بلا حارس في العيادة الخارجية، ولا كومبيوتر يسجل الاسم والهوية، ويمررك بعشر محطات كلها تستجوبك، قبل أن يخيط أحدهم جرحك. ستجلس مباشرة على كرسي أمام آلات الجراحة البسيطة ويتولى ممرض مدرب خياطة الجرح، إنها مهمته وليست مهمة الطبيب الذي ينشغل بأشياء أكبر، أيضا عند الشعور بالمغص، ستعثر على ما يسكنه من دون إجراء فحوصات، وربما أشعة سونار حتى يسكن مغصك.

كانت الأحياء عبارة عن بيت كبير، مفتوح لجميع الأطفال والشباب، أي كبير في الحي، هو أب أو أخ للجميع، ويمكنه اتخاذ القرارات بشأن كل ما يخصهم، الأمهات يرعين أبناءهن وأبناء جاراتهن، وتستطيع أن تأكل وتشرب في أي بيت. ولو ابتعدت قليلا في المدينة، ستعثر على مجتمع أكبر، هو أيضا مجتمعك، كباره آباؤك، وصغاره أبناؤك، وهكذا. لا يوجد متحرشون إلا نادرا، وهؤلاء يعرفهم المجتمع، وينبذهم، ولا يوجد لصوص إلا في أضيق نطاق.وقد ذكرت مرة حكاية الصورة التي التقطها لنا أنا وأخي فيصل، المصور محمد سليمان، وأوحت لي رؤيتها مؤخرا، حين زرت الأسرة في بورتسودان، بروايتي "فوتوغرافي – غليان الصور"، وأذكر أن محمد سليمان هذا، كان طويلا ونحيفا، ويحمل الكاميرا في يده دائما، وتجده في

مباريات الأحياء التي تجري على الملاعب الترابية، يلتقط الصور للاعبين، ويأتي في اليوم التالي لتوزيعها مجانا، رافعا من الروح المعنوية للجميع.

كانت المكتبات أيضا جزءا مهما من أدوات الزمن الجميل، المكتبات التي لا علاقة لها بالدفاتر والأقلام ومواد القرطاسية، إنها كتب فقط، متاحة للشراء إن كان ثمة نقود، وللاستعارة مجانا، إن لم يكن القارئ يحمل نقودا. وقد شكلت تلك العلامات الجميلة فعلا محطات لأمثالنا من عشاق القراءة، وكنت أستلف من مكتبة عكاشة الصغيرة، القريبة من بيتنا، في وسط المدينة، كتبا في الأدب والتراث، وغيره، ولم أدفع يوما لأي كتاب. لقد كان عكاشة صامتا دائما، يده على خده، من دون شرود، يلتقط القراء المهتمين، يرشح لهم الكتب في كلمات قليلة، ولطالما فكرت في سؤاله عن ربحه من هذا السلوك، لكن مؤكد يحس بالبهجة أنه ساعد في تنمية عقول صغيرة.

الحروب الدائرة الآن، أكبر أدوات لقبح الحاضر، حروب في كل مكان، كل يحاول إراقة دم غيره، وغيره يحاول إراقة دمه، الموتى بالآلاف، والنازحين المرعوبون بمئات الآلاف، والحياة برمتها، أشبه بكابوس عليك أن تحياه مرغما، أو تموت فيه برحابة صدر. وهذا ما حدث بالفعل لأشخاص كثيرين أعرفهم ومنهم مبدعون صميميون مثل الشاعر كمال الجزولي، أحد أعمدة الكتابة والشعر والنضال في بلادي. وكذا مفكرين وشعراء وكتاب عديدين من بلاد قطعا تفتقد زمنها الجميل.

حفرة لاستذكار وجه الإسكندرية

في روايتها "السيدة التي سقطت في الحفرة" الصادرة عن دار الشروق في مصر، تحاول الكاتبة إيناس حليم، وبإصرار إبداعي كبير، جرنا إلى حبس الأنفاس، في ملحمة لا تبدو كتبت عن سيدة سقطت في حفرة ما، في يوم ما، من أيام سبعينيات القرن الماضي، ولكن عن الإسكندرية أولا، كمدينة تستحق أن تلقى عليها عشرات التحايا، وعن النساء ليس ككائنات ضعيفة أو ضحايا، ولكن كشخصيات موجودة وفاعلة، أو خاملة لا يهم، قد يكُنّ ضحايا مرة، وبطلات أسطوريات مرات أخرى، ونساء هن ربات بيوت وأمهات عاديات في معظم الأحوال..

منذ بداية النص الذي يعتمد على كثير من تقنيات وحيل الكتابة، تبدو الكاتبة، أو لنقل الراوية شادن مهتمة بنقل عالمين ممتلئين بالتفاصيل، عالم السبعينيات بما فيه من جمال وقبح، وعالم ما بعد الألفية، حين تحاول شادن لملمة الحكايات لتكتب روايتها، التي لم تكتبها أمها الكاتبة العظيمة، أو ربما تكون كتبتها، لست موقنا تماما، لأن النص بحيله يمكن أن يلقي بك في دوامة من الهواجس والشكوك. واللافت في هذه الرواية، كثرة التفاصيل التي لا تغفل أي شيء، حتى لو كان بسيطا وغير مؤثر، لكن وجوده داخل العقد المغزول للكتابة، يؤثر في كل شيء. دعونا نتابع الراوية حين تفكر، حين تستعرض صندوق الهدايا الذي وصلها من والدتها الكاتبة، حين تمشي في شارع النبي دانيال، وغيره من الشوارع المهمة في الإسكندرية، حين تلتقط وردة من حديقة، وحجرا صغيرا من الطريق، حين تلمح قطا أليفا يتمسح بحائط ما، وعاشقين يتناجيان في ركن هادئ، حين تغوص وسط ضجيج السيارات، حين تستمتع أو تمتعض من سقوط المطر، ولا تنقطع عن نسج الخواطر، وحين تتحدث عن قصة الحب بين جدها وجدتها، وتربطها بالعقل التنويري للجدة، التي صمدت، لكنها خرجت من الصعيد، حيث كان يمكن أن تدور مأساة كبرى.

أظن أن كثيرين منا سمعوا أو قرأوا قصة العروس التي سقطت في الحفرة، في السبعينيات ولم يعثر عليها أبدا، وتحولت إلى قصة أسطورية قد لا يعتقد الكثيرون بحدوثها، وأذكر أنني سمعت عن القصة وقت حدوثها، وكنت طالبا في الثانوي كما أذكر، وكانت ثمة تفاصيل كثيرة، تردنا عبر الصحف المصرية، التي كان بعضها يصل، ولدرجة أن الأمر أصبح مشوقا، ولكن انتهت القصة بغموضها، وتحولت إلى نص فنتازي أو أسطوري، وتحولت علامات التعجب والاستفهام حوله إلى علامات راكدة لا يستخدمها أحد.

إيناس استفادت من ذلك النص الفنتازي، وقادتنا كما قلت في تلك النزهة الثرية عبر نصها الذي قال الكثير، وأفصح عن الكثير، متخذا من خلفية العروس الضائعة، معزوفة ربما لتحية الإسكندرية، المدينة التي يعرفها التاريخ جيدا، الميناء العبقري الذي جمع طوائف وأجناسا عدة على مرّ التاريخ، وشهد ولادة وموت شعراء، وحكماء ورجال دين، وحروب وغير ذلك، وما زالت تلك المدينة أداة جذب كبرى للسياحة، واكتساب المعرفة الكبرى. وأظن أن كثيرا من الروايات كتبت عن الإسكندرية، وعالمها المختلف، منها لكتاب عرب، وكتاب أجانب أيضا.

المميز في نص إيناس، أنه لم يكن نصا استعراضيا للمعلومة، على الرغم من امتلائه بكثير من المعلومات، التي قد لا نكون نعرفها، ما يجعله نصا معرفيا أيضا، ولا نصا كتب بكلاسيكية، أي بوضوح وحكاية تبدأ وننهيها في أذهاننا قبل أن تنتهي كتابة، ولا استخدم اللغة الباردة التي لن تحرك الشجن، ونقرأها في كتابات الكثيرين.

هو ببساطة أضاء، والتقط، وأحيا تساؤلات كثيرة، ومنحنا متعة قلما توجد في الحكايات.

لا أريد كما قلت أن أحكي قصة شادن ومحاولتها لمّ تفاصيل حياتها وحيوات نساء اقتربت منهن في الأسرة، ولكن التحدث عما يمكن أن نكافأ به حين نقرأ نصا كهذا.

أنا شخصيا لم أعثر على الحكاية كاملة، ولا حتى شبه مكتملة، وإنما شاركت في كتابتها، وتخيلتني أقف مع كثيرين، نغزل مع الراوية مونولوجاتها، وحكاياتها الصغيرة، وهواجسها وأوهامها، وحتى لحظات ضعفها وفرحها، لنكتب قصة عن سيدة سقطت في حفرة، وعن مدينة كاملة، لا أظنها سقطت في الحفرة، لأن تاريخها الكبير، يقف حائلا بينها وبين السقوط في الحفر. وإن كان الزمن قد تغير، والحكاية الرائجة في السبعينيات، تحولت إلى أسطورة، فإن ثمة حكايات أخرى في الزمن الحاضر، يمكن أن تنتشر، وأن تستلهم في ما بعد، حين تصبح أساطير راسخة. ولا يفوتني أن أشير إلى دأب الكاتبة في البحث عن كل ما يسند روايتها ويوقفها عند باب التميز، وكما أقول دائما، لا بد من البحث قبل البدء في كتابة أي فكرة، فالبحث حتى لو استمر زمنا، يفتح أبوابا للكتابة قد تكون مغلقة، ولكن حين تُكتب نتائجه أو تُحول إلى صيغ إبداعية، يظهر التميز، هناك من يكتب روايته كأنها البحث الذي أجراه، وهناك من يعثر لأبحاثه على صيغة إبداعية ممتعة ومدهشة، كما حدث في هذه الرواية.

إيناس حليم، كاتبة يأتي منها الكثير، وكانت تجربتها هنا مهمة جدا في مسار الرواية، هي كتبت رواية، لن نقول إنها رواية نسوية، ولكن رواية عربية بمواصفات غاية في الجودة.

هوس القراءة

في كتابه "هوس القراءة"، الصادر في ترجمة عربية أنجزها أنس غطوس، عن دار الوسم الكويتية، يسرد لنا الكاتب والقارئ الأمريكي جو كوينن تجربة طويلة وثرية مع القراءة، وصلت إلى حد الهوس، وأن الكاتب القارئ، لم يعد باستطاعته أن يضيع دقيقة واحدة لا يقرأ فيها. إنه شيء أشبه بالمخدر الذي يسيطر على الجسم، ويدفع المدمن لتناوله مهما كانت الظروف. المؤلف يتطرق لعشرات الأفكار الخاصة بالقراءة واقتناء الكتب ويستعرض في صفحات طويلة ما قرأه من كتب في كل المجالات بما فيها الأدب والفلسفة والمنطق وعلم الأديان، ويؤكد على الفائدة الكبرى التي استفادها طوال حياته، وأنه كلما قرأ واستفاد، ازداد شغفا، ولدرجة أنه لم يحصل على رخصة قيادة للسيارة إلا بعد سن الخمسين، ذلك أنه يستطيع أن يركب القطار أو الباص وفي يده كتاب، بينما لا يستطيع ذلك وهو يقود سيارة. هناك أيضا إحصائية سنوية لما كان يقرأه سنويا، وهو رقم جيد، أو لنقل رقم أسطوري بالنسبة للقراءة، ولا أعتقد من السهل على قارئ حتى لو كان متفرغا أن ينجزه. تعرض أيضا لمشاكل التعلق بالكتب، ونسيان نفسه في المكتبات، والتخلي عن مواعيده العاطفية وغيرها من أجل الوقوف في صف طويل، للحصول على كتاب رائج صدر حديثا، ويتقاطر الناس لاقتنائه. يقول أن بإمكانه أن يصبر حتى يستقر الكتاب على رفه في المكتبات، لكنه لا يستطيع الصبر، لا بد أن يأتي بالكتاب يقلبه بشغف، ثم يضعه في خطة قراءته التي تتسع يوميا بإضافة الجديد. هو لم يذكر شيئا عن الحصول على توقيع المؤلف على الكتاب، فالمهم ليس خط المؤلف أو بصمته، ولكن ماذا أضاف له شخصيا.

ولأن كوينن قارئ متمكن، فلا بد أن تمر عليه جميع أصناف الكتب، تلك الكلاسيكية المهيبة الجامدة، الممعنة في الرزانة، والرخيصة التافهة التي يكتبها عاطلون، ومتسكعون من أجل الرزق، وقد ينجح مسعاهم. وقد تعرض لكتب الأعلى مبيعا التي تدعمها مجلات محترمة، وتلك التي يدعمها نقاد أو قراء كتب يستكتبون خصيصا للدعاية، وقال بأن معظمها لا يمكن قراءته، وأنه مجرد كلام بلا إبداع يملأ الورق. والقارئ الحقيقي لا يمكن أن يتورط بإضعاف بصره، وتشتيت ذهنه في مثل تلك الكتب، لكن إن تحول الأمر إلى عمل يأتي بالمال، فلا بأس من اقترافه بين حين وآخر، أي أن يكلف بواسطة مجلة تدفع أجرا بكتابة مراجعة لكتاب ما.

ومعروف طبعا أن مهنة قراءة الكتب ومراجعتها قبل صدورها بفترة وجيزة، من الوظائف الرائجة في الغرب، وتعتبر من أساسيات تدشين الكتب، والذي يتابع تلك المسائل، يعثر مثلا على كتاب سيصدر قريبا، معروضا على أمازون، وهناك من كتب عنه مراجعة، قبل أن يصدر.

أيضا كتّاب المراجعات قد لا يكونون قراء فقط، ولكن حتى كتّاب لهم تاريخ كتابي يهم دور النشر أن تستفيد منه.

لكن متى يبدأ الشغف بالكتب، والرغبة المزمنة في القراءة؟ يقول كوينن وأقول معه، حسب تجربتي كقارئ، أن الأمر يبدأ مبكرا جدا، أي بمجرد أن يتعلم الشخص كيف يقرأ الحروف ويكتبها، وقد تكون رغبة شخصية، أو من رغبات العائلة التي يكون ربها قارئا ولديه مكتبة في البيت، ويحث أبناءه على القراءة. يقول كوينن أن والده كان قارئا، لكن ليس بالصورة التي تشكل هو بها، صحيح كان لديه كتاب في يده من حين لآخر، ولديه مكتبة في البيت، ويقرأ الصحيفة يوميا، لكن هو أي جو، لا يتوقف عند هذه الحدود التي يتوقف عندها والده. إنه يركض خلف الكتب، ويلهث من الركض، ينام وفي يده كتاب، ويستيقظ، ليذهب إلى الحمام، وفي يده كتاب أيضا، إنه هوس لا محدود، جنون لكن لا يضر أحدا كما يصفه.

غرقت في كتاب الأمريكي القارئ، وتخيلتني في صفحات كثيرة منه، فقد أصبحت قارئا مبكرا أيضا، قارئا لكل ما يمكن أن يقرأ، ابتداء من المجلات المصورة، ومجلات الأطفال، والألغاز المسلية، والكلمات المتقاطعة، إلى ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة.

وقد تحدثت مرة عن الأستاذ رفعت ضرار صاحب إحدى المكتبات في مدينة بورتسودان، وكان صديقا للوالد، وكان يأتي أسبوعيا بكتاب جديد، يلقيه لنا من فوق الحائط، ونتنافس نحن الأخوان في البيت، على قراءته، وبالطبع نقرأه كلنا، وفي نهاية الأسبوع ثمة اختبار صغير من الوالد يعرف به من قرأ ومن لم يقرأ؟

هذا الطقس كان بداية لهوس القراءة عندي، حيث تعرفت بعد ذلك على مكتبات الجوار، وكانت في معظمها أكشاكا صغيرة، ضيقة، لكن مكتظة بالكتب، ويمكن أن تدخر من مصروفك المدرسي كل أسبوع لشراء كتاب، أو استعارة كتاب منها.

ولا أستطيع أن أصف تلك المتعة الغريبة التي كنت أحس بها، حين أحصل على كتاب، إنه الرفاهية التي أبحث عنها، بينما زملائي في المدرسة يذهبون للعب كرة القدم.

وأظن أن تلك المتعة رافقتني حتى الآن، فما زلت أرتجف نشوة كلما اقتنيت كتابا جديدا.

فقرة أخيرة عن القراءة الإلكترونية، قراءة الكيندل والآيباد، فقد تحدث كوينن عنها أيضا، وذكر أنها ليست قراءة حقيقية، ولكن قد تكون اضطرارية، فالقارئ المتمرس ينفر منها، ذلك أن تعامله مع الكتب أبوي أو أخوي، فهو يحسها أرواحا تعيش معه، وتتحدث معه بينما الشاشات مجرد بقع مضيئة جامدة بلا أي شعور.

هنا أيضا أتفق معه، وأستغرب فعلا أن كثيرين تخلوا عن القراءة الورقية، وتنازلوا عن الإحساس بأنفاس الكتب وروائحها، ونشاطها من حولهم.

خطط القراءة

كثيرا ما تطالعنا في وسائل التواصل الاجتماعي مثل تويتر وفيسبوك، بداية كل عام، خطط يضعها البعض في صور أو فيديوهات، يقررون فيها عدد الكتب التي سيقرأونها في العام الجديد، وأسماء بعضها وصور أغلفتها، مع ذكر ما قرأوه في العام الماضي، مع كثير من الفخر. وتشمل تلك القراءات في الغالب روايات عربية ومترجمة، مع قليل جدا من أصناف المعرفة الأخرى كالتاريخ، والفلسفة، والعلوم، التي يمكن الاستفادة منها في الحياة عموما.

أعتقد أن هذا التقليد، أي وضع الخطط، الذي يصور للمتابع أنه ملزم للقارئ الذي وضعه، صعب التنفيذ جدا في عالمنا العربي، الذي لا تستطيع أن تعرف فيه كيف سيبدأ يومك، وكيف سينتهي، وأي عوائق أو مصادفات، قد تعتقل يومك وتبعدك عن القراءة، وفي البلد التي تسود فيها صعوبة العيش، أو عدم الأمان والاستقرار، لن تكون القراءة خيارا مناسبا أبدا، فالقارئ في هذه الحالة يود أن يعثر على ما يطمئنه على حياته أولا، وما يمكن أن يفعله لتوفير لقمة عيشه، ولن يلهث خلف الكتب لقراءتها. ولو كان من عشاق الكتب فعلا، فإنه قد يلمسها أو يقلبها من حين لآخر، حين يمر بمكتبات، لن يشتري منها، وأذكر حين كنت أعمل في السودان، في وظيفة شاغلة لحد بعيد، أن أحسست بصدأ في تفكيري، وقررت أن أقرأ رغم عدم وجود وقت، حملت إلى العمل كتاب "رحلة المليون" لغادة السمان، وهو كتاب شيق وسلس، وظللت أفتحه في الاستراحة، أو في فواصل العمليات، أقرأ صفحة أو صفحتين وأغلقه، واستمر الأمر لشهور، ولم أستطع إكمال الكتاب إلا بعد أن سافرت وعملت في وظيفة أقل إشغالا، وظيفة فيها ساعات عمل محددة، تنتهي دائما، ويظل ثمة وقت جيد وعظيم، قرأت فيه آلاف الكتب بعد ذلك، وتعرفت على إنتاج كتّاب كنت أسمع بهم سابقا، أو قرأت قليلا من كتبهم مثل ماركيز ويوسا، وميلان كونديرا، أيضا قرأت ما أفادني في الكتابة من تاريخ وجغرافيا وعلم اجتماع، وهذه المعارف أسميها خامات الكتابة، أي يمكن تشكيل أعمال روائية جيدة بالاتكاء عليها.

سألت أحد القراء يوما، وكان من الذين توطدت صلتهم بي، وأجده كثيرا في معارض الكتب المختلفة: هل فعلا تقرأ تلك الكتب التي تضعها كل عام في خطتك القرائية للعام الجديد؟ رد: ليس تماما، أحاول قراءتها، وقد أنجح أو أفشل، ليس لعدم وجود الوقت، فأنا لا أعمل في وظيفة، ولكن ربما لعدم تفاعلي مع الكتاب أصلا، حيث أتركه وأذهب لغيره، وتجد دائما أن كتبا في الخطة ألغيت، وكتبا أخرى أضيفت، لم تكن في ذهني حين خططت للقراءة، وقد كنت شغوفا ومتشوقا لقراءة كتاب "بجعات برية" للكاتبة الصينية تشونج تشانج، الذي وصف بأنه ملحمة لثلاثة أجيال من النساء الصينيات، ومرتبط بتاريخ الصين عموما، ورغم الكم الكبير من المعلومات في الكتاب، إلا أنني لم أستطع التقدم فيه، وألغيته من الخطة ولم أعد إليه. أيضا قال لي قارئ آخر، إنه ظل منذ التسعينيات، يخطط لقراءة رواية ماركيز الشهيرة "مئة عام من العزلة"، ولم يستطع إكمالها قط، دائما هناك ما يعوق تقدمه فيها، إما ظروف اجتماعية أو نفسية، هكذا ظلت رواية مخططا لقراءتها من دون أن تقرأ.

وبسبب مثل تلك الخطط، حتى لو لم تنجز، قد تكون ثمة فائدة، حيث قطعا ستتكون مكتبة للذين يستطيعون شراء الكتب، ورصها في مكتبات، هذه المكتبة لن تكون مهجورة بالتأكيد طوال الوقت، ولكن قد يعود إليها المرء، أو الأجيال الجديدة في بيته، ويبدأون في نبش الكتب.

أنا اقرأ كثيرا كما ذكرت في مقالات سابقة، اقرأ منذ زمن طويل، ولكن لا أذكر أبدا أنني وضعت خطة مسبقة، تضم كتبا لا بد من قرأتها، فأنا أعتمد على القراءة العشوائية، من بين كتب أقتنيها من المكتبات، أو معارض الكتب، وهذا يعتمد على تذوقي الشخصي، أحيانا يعجبني الكتاب فأغوص فيه لأنهيه في وقت قصير، وأبحث عن غيره، وأحيانا لا يلائم تذوقي فأتركه، وربما أعود إليه أو لا أعود حسب وقتي، وفي هذا السياق، ضاعت مني كتب كثيرة تعتبر مهمة، مثل كتب

الفكر، والتصوف التي تحتاج لتركيز كبير في القراءة، بينما تظل كتب التاريخ أثيرة لديّ، ولا أعرف هل نرحل للتاريخ كثيرا بسبب ضجرنا من الحاضر، أم لاستخلاص العبر؟

أنا أعتقد أن الأمر مجرد متعة قرائية، ومعرفة لأحوال الناس قديما ومقارنتها بأحوالنا الآن. وربما للاستفادة منها حين أكتب نصا يأخذ شيئا من نكهة التاريخ. أعتقد أيضا أن أدب الرحلات مهم جدا، فهو أدب في الغالب صادق، ويزودك بالمعرفة المطلوبة بطريقة سلسة.

شيء لا بد من ذكره لواضعي خطط القراءة السنويين، فالقراءة يجب أن تكون قراءة مكتملة وليست ناقصة، بمعنى أن القراءة ليست قراءة الروايات فقط، فالشعر يحتاج قراءة، والفكر يحتاج قراءة، والعلوم الاجتماعية تحتاج قراءة، وأعرف دورا للنشر همها الرئيسي ليس نشر الروايات، ولكن نشر الكتب الأخرى التي تفيد القارئ أكثر مما تفيده الروايات، حتى لو كان عائدها المادي ضئيلا. والذين يقرأون كتاب "هوس القراءة" الذي تحدثت عنه في مقال سابق، يعثرون على خيوط كثيرة، تظفرهم بالقراءة الصحيحة.

الأدب الأفضل أفريقيا

قرأت مؤخرا، في موقع إلكتروني اسمه ريدرز زون، باللغة الإنكليزية، تقريرا مطولا عن ما اصطلح على تسميتها: أفضل خمسين رواية في الأدب الأفريقي، على مر التاريخ.

وضمت تلك المجموعة التي ذكرتها كاتبة التقرير، واسمها نورا ويلسون، روايات أفريقية شهيرة في الأدب العالمي، وأخرى ليست ذات شهرة كبيرة، وربما تكون مشهورة خارجيا لكن لم تصلنا ترجمات لها. وهذا شيء متوقع، لأن ليس كل ما يكتب ينتشر بشدة، أو يصل لكل الناس، وكلنا نصدم بين حين وآخر بالتعرف إلى أديب لم نكن نعرفه من قبل، بينما هو معروف بشدة في بلاده وبلاد أخرى.

وبالرغم من أنني ذكرت مرة أنني لا أميل كثيرا لتلك الاختيارات التي تذكر أعمالا أدبية بعينها، متناسية أعمالا قد تكون أهم منها، وأنها في الغالب تخضع لذوق الذي قام بالاختيار، أو المجموعة المشاركة في الاختيار، إن كان الأمر طرح للتصويت على الجمهور، إلا أنني اتفقت نوعا ما مع قائمة الأفارقة تلك، خاصة أنني اطلعت على جزء مما ذكر، مثل روايات الجنوب أفريقي كويتزي، خاصة "في انتظار البرابرة" و"خزي". وهما روايتان فيهما الكثير من النقد للمجتمع القاسي الذي تدور أحداثهما فيه، وتبدو رواية "خزي" التي تتعرض للتحرش الجنسي من أستاذ بتلميذة عنده في الجامعة، وإقامة علاقة خاصة معها، واقعية جدا، ونعرف أن مثل تلك الممارسات موجودة وستظل موجودة في كل مجتمع. أما رواية "في انتظار البرابرة" فهي رواية عن القسوة، واستخدام السلطة والنفوذ بلا رحمة، وقهر المقهور أصلا، وقهر من يتعاطف معه، مثل القاضي الذي تعاطف مع مساكين لم يشكلوا خطرا على أحد، وتم اغتياله معنويا، وتعذيبه جسديا، وأظن أن هذه الرواية بالفعل علامة في الأدب الأفريقي والعالمي.

بالنسبة للمعلم تشينوا أشيبي، النيجيري العملاق، فكلنا يعرف "أشياء تتداعى" التي كتبها بشاعرية وعظمة، وغرائبية ملهمة، قد تكون سبقت غرائبية أمريكا اللاتينية. إنها رواية عن الاستعمار الذي يغزو أراض طيبة، وقوما بسطاء يعيشون وسط حقولهم وتقاليدهم وأساطيرهم أيضا، ليعلمهم التحضر كما ادعى، عبر التعاليم الكنسية. وهكذا نتعرف على دخول الاستعمار إلى أفريقيا التي لم يخرج منها حتى الآن، ونرى كيف أن ثروات أفريقيا، تذهب كلها إلى الغرب، وأي انتفاض للشعوب يتم قمعه بطريقة أو بأخرى. وحقيقة رواية أشيبي هذه فعلا مفخرة في الأدب الأفريقي، وما زلت أعود لقراءتها من حين لآخر، لأمتلئ بالشعر والحكمة، والأساطير.

من الذين ذكرت أعمالهم أيضا في تقرير الأفضل، الكاتبة النيجيرية الشهيرة تشيماندا نغوزي أديشي، وهي من جيل حديث نسبيا، ونالت كثيرا من الشهرة حين نشرت روايتها "نصف شمس صفراء" قصة الولد الصغير الذي بدأ كخادم في بيت، وانطلق خلف طموحه ليحقق شيئا. إنها ليست رواية عادية، تسرد قصة وينتهي الأمر، لكن تأخذ القارئ خلف الوجع الأفريقي، وتدخله دهاليز وممرات شتى، ويتعرف على خصائص القارة التي أهمها الفقر والجوع والمرض. ومعروف أن الأوبئة كانت وما زالت، من ملامح القارة الأفريقية، ويوجد في كتب الصحة الوقائية، للدارسين، وفي مواقع كثيرة على الإنترنت، عدد من التطعيمات الملحة التي يجب أخذها لكل من يود السفر إلى إحدى الدول الأفريقية، وحقيقة هذا ليس ترفا ولكن ضرورة ملحة.

نغوجي واثيونغو، الكاتب الكبير، الذي يذكر اسمه دائما في ترشيحات جائزة نوبل، موجود أيضا، موجود بروايتين صراحة لم أقرأهما، لكني أعرف نغوجي، وقرأت له ما عثرت عليه من ما ترجمه الشاعر سعدي يوسف. فقط أذكر بأمانة أنني لم أحب طريقته، أو لم تشدني وتجعلني ألهث لاقتناء كتبه وقراءتها حتى باللغة الإنكليزية، هذا بالطبع ليس انتقاصا من قدرة الكاتب

وإنما أشياء تخضع لذوق المتلقي. وذكرت كثيرا أنني لم أحب أعمالا معروفة، منها أعمال لكويلهو، ومواراكامي، أحبها معظم الناس، وأيضا للأمانة هناك من لا يحب ما أكتبه، وهذا شيء عادي كما قلت.

وفي سياق عدم الانجذاب، قرأت عملين للصومالي نور الدين فارح، وهو من المشاهير عالميا، حيث يكتب باللغة الإنكليزية، قرأت "خرائط" التي ذكرها تقرير الأفضل هذا، ورواية أخرى هي "هدايا" وكلا العملين مكتوب بحنكة. لكن لا أنجذب لما هو ممعن في الواقعية، ولا يمنح إيحاءات أو جملا ذات ظلال، أو يستخدم الخيال بشدة في الوصف والحكي عموما، ورغم ذلك أجد رواية "خرائط" قد وضعت بالفعل في مكانها اللائق، من الكتب الأفضل أفريقيا. هناك روايتان من السودان في هذا التقرير، هما "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح وهذه غنية عن التعريف، فهي من الأفضل في كل وقت، ورواية "صائد اليرقات" التي كتبتها منذ سنوات عن مخبر أمني متقاعد، يريد أن يكتب رواية، وحققت ما حققته.

أسعدني أيضا وجود رواية لكاتب شاب، هي رواية "الصيادون" للنيجيري شيغوزي أبيوما، وهي رواية أولى للكاتب، وتتحدث عن عائلة يصطاد صبيانها في بحيرة ضحلة، مع التركيز أيضا على مآسي القارة الأفريقية وتخلفها. أيضا توجد رواية لبن أوكرى، وهو كاتب ممتاز من جيلنا، ووصل للقائمة القصيرة للبوكر الإنكليزية، لكن قراء عربا كثيرين لا يعرفونه.

ما لم أستوعبه، هو عدم ورود أي عمل للتنزاني عبد الرزاق قرنح، الذي حصل على جائز نوبل منذ عامين، وشخصيا أعجبتني طريقته في الكتابة، إنه كاتب مختلف فعلا.

أخيرا، ليس الأمر كما قلت، درسا مفروضا على الجميع وعليهم حفظه، إنها مجرد تصورات أو اقتراحات، أو حماس لأعمال أدبية معينة، من قبل من يكتب تقارير الأفضل دائما. نحن كقراء لنا رأينا في أن نختار أو لا نختار، نعجب بعمل أو لا نعجب، والأدب بحر واسع يسع آراء الجميع.

معرض القاهرة للكتاب-أعراس مكلفة

ربما يكون معرض القاهرة الدولي للكتاب، الذي يقام سنويا في مساحة كبيرة من الأرض والمباني، وملحقا بالمطاعم والمقاهي المتنوعة، هو أكبر المعارض من حيث كثافة الجمهور الذي يؤمه، وأكثرها جذبا للمبدعين من شعراء وقصاصين ورسامين وفنانين عموما، إذ يأتونه من داخل مصر وخارجها بأعداد كبيرة، غالبا من غير دعوات رسمية، ليقضوا أياما بهيجة، وربما ليوقعوا على كتب صدرت لهم حديثا أو قديما، أو يحضروا جلسات توقيع لزملائهم، أو يشاركوا في ندوة من الندوات التي تقام مصاحبة للمعرض، وهناك من يحضرها من الجمهور، كل حسب اهتمامه.

ولعل فعاليات المقهى الثقافي، من النشاطات العريقة في المعرض، أذكرها منذ زمن طويل، ويشرف عليها دائما كتاب وشعراء ونقاد لهم مكانتهم في الوسط الثقافي.

وقد شاركت مؤخرا، في ندوة مهمة عن الروائي الراحل بهاء طاهر، تحدث فيها أساتذة كبار عن تجربة بهاء، وعن تفرده في الكتابة الروائية مما صنع منه هرما مجيدا، وكانت شهادتي إنسانية، حيث أنني عرفت الرجل عن قرب، وسميت بهاء عم الكتابة، كناية عن اهتمامه، ورعايته للكتاب الجدد، دون أن يبدي أي تذمر، أو يدعي الانشغال، أو يفر من مسؤولية غير رسمية ألقتها الشهرة على عاتقه. وبالتالي فقدت الكتابة، برحيله، واحدا من الأعمام الكبار، مثلما فقدت مستجاب وعبد الحكيم قاسم وسعيد الكفراوي من قبل.

قلت إن كثيرين يحضرون من أي مكان، وتمتلئ صفحات الميديا بالصور والابتسامات، وفرحة اللقاء بالكتب أو بالأصدقاء الافتراضيين، الذين يهبطون فجأة من الافتراض إلى الواقع.. ستكتب واحدة: آه صديقتي منذ عشر سنوات، ألتقيها لأول مرة، ويكتب مبدع من بلاد بعيدة: صورة مع ناشري الجميل، الذي لم ألتقه من قبل، وكل تلك الصور فيها ابتسامات، وإشعاع فرح تحسه ينبض من العيون، ويحول الصورة الجامدة إلى صورة حية بامتياز.

وقد جربت مثل هذا الإحساس بالفرح بلقاء الافتراضيين على أرض الواقع، حيث ألتقي دائما في أي مكان أزوره، بمن هو صديق جميل، موجود دائما معي في كل نشاط، والآن جاء حقيقيا، ليوطد تلك الصداقة.

الملاحظ في دورة 2024، كثرة الكتب المحمولة على الأيدي، وتلتقط معها الصور.

لقد سميت تلك اللقطات الباسمة في ما مضى: كتابك في قبضتي، وقلت إنها فرصة للذي لن يشتري أو لا يستطع شراء كل الكتب المعروضة، والتي طلب منه أصدقاؤه الكتاب شراءها، إكراما لهم، أن يلتقط مثل تلك الصورة مع الكتاب، يرسلها للمؤلف، ويعيد الكتاب إلى مكانه في رفوف دور النشر.

كان مزاحا بالطبع، لكن ما نظنه مزاحا، يحدث حقيقة، وعندي أصدقاء، أو أشخاص أعرفهم، ولم أطلب منهم شراء كتبي، يلتقطون صورا معها، يرسلونها لي، أو يضعونها على صفحاتهم، مع جملة: الكتاب في قبضتي. بالطبع ليس كل الأصدقاء، فهناك من يشتري برغم غلاء الأسعار، وربما يستدين من أجل أن يضع لمعرض الكتاب ميزانية قد تكفي وقد لا تكفي.

قلت إن الكتب التي في قبضة الزوار، كانت كثيرة جدا على غير العادة، ولم أرد أن أربطها بأي ضائقة اقتصادية أو شح للمادة، التي توفر ثمن الكتب، قلت ربما ازداد عدد الكتاب، وازداد عدد الذين يمكن أن يقبضوا على الكتب، وأظن أني كنت محقا في ازدياد عدد الكتاب.

لم تعد مسألة كتابة الرواية عملا من أساسياته الإبداع والإلمام بالأبجديات والقراءة المكثفة لمن سبقوا الكاتب في المجال، إنه عمل فقط، قد يكتبه أي شخص أراد الكتابة، وطبعا من السهل نشره، وعرضه هنا وهناك، والتنويه به عبر الميديا، والحصول على الصور التي تحمله في الأيدي.

السؤال الذي أردت طرحه على دور النشر التي باتت ربما أكثر من القراء أنفسهم، وتشارك في معارض كثيرة، وتدفع ببعض مطبوعاتها إلى سباق الجوائز:

هل فعلا يوجد قراء بحجم تلك المنشورات؟،

وهل يوجد ربح يعوض الوقت والجهد الذي قد يبذل في التحرير، والتصحيح، ومطاردة المطابع، والشحن من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا؟، ومحاولات الحصول على مكتبات ضخمة لعرض الإنتاج مثل كينوكينيا وجرير؟

إن كانت الإجابة لا، فما الفائدة إذن؟. لن يقول لي أحدهم إنها هواية يريد إشباعها، فلا توجد هواية يلاحقها البيزنس، والمساومات، وضياع الوقت بلا معنى.

إن كانت الإجابة نعم، فأين حق المؤلف إذن؟

هذه هي النقطة الجوهرية التي لا أمل من تكرارها أبدا. نحن نكتب ونشقى، ونهمل أسرنا، وتتشقق أصابعنا، وربما يخف البصر من كثرة التحديق في شاشات الكومبيوتر، ونشهد تلك الأعراس التي تسمى معارض الكتب، ولا نرى أي حقوق تتهادى أو تركض تجاهنا، لا يوجد شيء، لأن الجملة الأثيرة لدى الناشرين: لا يوجد بيع.

إذن ما دام لا يوجد بيع، فلا داعي لوجود النشر أصلا، ليجلس كل منا في بيته، يكتب ويتعارك مع الكتابة، ويقرأ ما ينتجه على نفسه أو أبنائه، أرى دائما مطاعم تغلق أبوابها حين لا تجد زبائن، وبوتيكات لبيع الملابس، غيرت نشاطها لعدم وجود الزبائن، فليغير الناشرون أنشطتهم إذن، أو فليلغوا من قواميسهم جملة عدم البيع المحبطة.

الشريك الأدبي

تعتبر مبادرة الشريك الأدبي، التي استحدثتها هيئة الأدب والترجمة في السعودية مؤخرا، وأشركت فيها كثيرا من المبدعين العرب، مبادرة مهمة للغاية، حيث أنها تنقل أجواء الإبداع والحوار الثري من المنصات الجامدة إلى المقاهي الشعبية، الغاصة بالرواد، من مختلف الأعمار والفئات، والذين يمكنهم المشاركة بالحضور، وبالنقاش على حد سواء.

المبادرة عمادها المقاهي، وقد تزامنت مع انتشار عدد من المقاهي المجهزة نوعا ما بصالات قد تكون واسعة، وقد تكون ضيقة قليلا، لكنها مستعدة لاحتواء الجمهور مع الأدباء الذين تتم مناقشتهم. إنها باختصار عودة للصيغة الجيدة للقاء المبدع بجمهوره، تلك التي كبرنا عليها قبل أن تأتي الإنترنت، وتأتي مواقع التواصل الاجتماعي لتبتلع الفرص الذهبية للحوار المباشر، وتحيل المعنى إلى افتراض سيء، لا أحد يلتقي فيه أحدا، ولا أحد يعرف أحدا بصورة شخصية، ليتحدث معه. وكثيرا ما نفاجأ بأشخاص تعرفنا إليهم افتراضيا، والتقيناهم بعد ذلك مصادفة، مختلفين تماما عن تصورنا، سواء من حيث المظهر أو المحتوى. وقلت مرة، إن التخفي خلف كومبيوتر أو هاتف محمول وصياغة الكلام، تختلف تماما عن المواجهة، والصياغة المباشرة للكلام أمام من تحدثه.

تجربة المقاهي عندي كانت في القاهرة، وهي مدينة تعج بالمقاهي التي لم يضع لها أحد برامج إبداعية لتسير على نهجها، وإنما وجود قامات الأدب في أروقتها، هو ما يشد الجمهور، ويصنع جوا ساحرا للحوار المباشر، وللحديث عن الكتب والتنويه بالإصدارات الجديدة.

صحيح أن الجلسة كانت في الغالب تضم مهتمين بالثقافة والأدب، أو مريدين لكاتب ما مثل نجيب محفوظ، أو شاعر مثل محمد عفيفي مطر وأمل دنقل، لكن هناك أيضا من يأتي منجذبا بشهرة الوجود في أيام معينة لهؤلاء المبدعين، وبالتالي يحدث الحوار المباشر.

الشريك الأدبي، تعميق أو تطوير لتلك الفكرة التي ما زالت موجودة في مصر، وغيرها من البلاد العربية، لكن ليست بالوهج القديم كما ذكرت، وليست بالهمة المطلوبة للمبدعين لإيقاد وهجها بعد أن تعقدت الحياة، وصعبت سبل العيش، وجاء التواصل الافتراضي السهل، الذي لا يحتاج إلى تحرك أو بحث عن مواصلة للذهاب إلى مكان ما.

وكان الروائي المصري وحيد الطويلة، بحكم عشقه للمقاهي والكتابة فيها، حتى عهد قريب، حريصا على جلسة الجمعة في مقهى زهرة البستان في وسط القاهرة، حيث يأتي المبدعون القادرون على المجيء، من مختلف الأجيال، وأيضا يأتي المبدعون الزائرون لمصر، للاستمتاع بجلسات استثنائية شيقة. ولكن يبدو أن تلك الجلسة فقدت انتظامها مؤخرا.

لكن ما الذي تقدمه مبادرة الشريك الأدبي للمبدع، وللجمهور الذي يحضر خصيصا، أو يتصادف وجوده في مقهى ما، وينتظم في الحضور؟

صراحة أعتقد أن ما يقدم كثير جدا، وأهم ذلك حث الناس الذين يطالعون الإعلان عن وجود كاتب ما، في مقهى ما في زمن معين، وينوون الحضور، على قراءة شيء لذلك الكاتب، إن لم يكونوا قرأوا له من قبل، أيضا حث الذين قرأوا، على اقتناء الجديد، من أجل المتابعة، والذين يعرفون الكاتب جيدا، أن يصيغوا دراسات سريعة وملاحظات عن التجربة، لتقديمها أمام الجمهور، ويمكن أن تكون مشاركة المبدع إما بإلقاء محاضرة عن تجربته الإبداعية، أو الإجابة على أسئلة توجه له من المحاور، وإن كان المحاور ذكيا أو مطلعا على التجربة، ترتقي الجلسة بشدة، ثم يأتي دور الجمهور بعد ذلك لتقديم أسئلتهم أو انطباعاتهم.

وكما قلت أن أفضل ما في الأمر، ابتعاده عن الأمكنة الروتينية الجامدة، مثل قاعات المحاضرات المجهزة في الأندية والجامعات، إنها مجرد مقاعد يمكن زحزحتها من هنا وهناك، ويمكن استلافها من أمام رواد المقهى، إن كانت خالية.

ولأن السعودية بلاد واسعة، وفيها تنوع ثقافي، فإن المبادرة تم تعميمها على كل المدن تقريبا، تلك التي فيها مقاهي مستعدة للشراكة وخوض التجربة، ويجزم أصاحبها بوجود جمهور جاهز للحضور. هكذا يمكنك كمبدع مواجهة الحوار في الرياض أو جدة أو الطائف أو المنطقة الشرقية، من خلال تنظيم جيد ومبهر إلى حد ما، ويشجع على أن تتمنى العودة مرة أخرى لأن من ناقشك هنا، كان واعيا وجاء خصيصا بعد أن تسلح بشيء من تجربتك كما قلت.

وقد لفت نظري أثناء مشاركتي في مقاه عدة في المنطقة الشرقية، وجود أسئلة متباينة، كلها عن التجربة، وعن أعمال قرأها أو أحبها السائل، وأيضا عن أعمال قرأها سائل آخر ولم يحبها، أو يراها معقدة، وذكر صراحة ذلك. لكن لم يواجهني أبدا سؤال فوضوي يخفض من المزاج، أو يزعج وجودي، كما يحدث أحيانا في ندوات أشارك فيها. كأن يسألني أحد من دون وعي عن أشياء لا علاقة لي بها على الإطلاق.

كذلك كان الحوار في تلك المقاهي كلها، أدبيا بحتا، لم يتطرق لغير الأدب ولغير التجربة الخاصة.

أود فعلا أن أشيد بمبادرة الشريك الأدبي، والتي أعتبرها بديلا متحضرا للثرثرة وألعاب التسلية في المقاهي، وأتمنى أن تعمم على أماكن كثيرة بحاجة إليها. صحيح أن لا أحد من رواد المقهى ساعة وجود الكاتب فيه مضطر للجلوس في المكان المخصص والاستماع، لكن مجرد وجود نشاط كهذا يشد الجالس لمحاولة المشاركة.

هيئة الأدب والترجمة، بالفعل قدمت أفكارا مهمة في فترة قصيرة، وارتقت كثيرا بمفهوم الأدب والثقافة عموما في السعودية.

عباءة غنيمة- التاريخ والتفاصيل

وأنت تقرأ رواية "عباءة غنيمة" للكويتية عائشة عدنان المحمود، التي أنجزتها مؤخرا بعد رواية "وطن مزور" التي تحدثت فيها عن معاناة فئة من سكان الكويت، ومجموعة قصصية لم أطلع عليها، لابد أن تحس بشيء من الاندهاش، إزاء رواية لم تغفل شيئا من التفاصيل المطلوبة لصياغة حكاية ناجحة، وربطت تاريخ دولة الكويت بتاريخ أسرة يعمل عائلها في التجارة، ويمثل الرمز الأكثر ثقافة وتحضرا في الأسرة الكبيرة الممتدة، بدليل أن الأعراس كانت تجري طقوسها في بيته، والعزاءات أيضا تقام في ذلك البيت.

لوهلة وأنت تقرأ عن غازي الكبير، والرأسمالي، والعاشق لمريم، والطامح لتجيء له زوجته بفيصل، الذي سيسميه على عمه المحبوب، بالرغم من وجود عبد العزيز، الولد الأكبر، تكتشف أن غازي سيسير بالحكاية حتى النهاية، وأن رؤيته هي الرؤيا، التي ستسيطر على الحكي، بوصفه صانع التفاصيل البيتية ومالكها، لكن لأن فيصل جاء فعلا، ووجوده في البيت الكبير، وسط النساء كطفل أولا، مكنه من الإمساك بكثير من التفاصيل الصغيرة، التي ربما لا يعرفها غازي، أو لا ينتبه لها في زحمة مشاغله، وعبوره السريع بالبيت الداخلي إن عبر، ثم إمساكه بعالم الرجال، بعد أن كبر قليلا، سببا آخر ليروي الحكاية حتى النهاية.

بلسان فيصل إذن، الصوت الذي صاغته الكاتبة جيدا، ملأته بكل خصائص الرجولة المفترضة، وتحدثت به، نتابع كتابة سلسة، عذبة، جاذبة، بعيدة تماما عن الجمل المشحونة بالبلاغة، والزركشة اللفظية.

نحن ننتبه لتفاصيل غاية في الإبهار، هي بمثابة معلومات قد تكون جديدة، تمنح الرواية فهما آخر، بوصفها رواية معرفة: الأكل والشرب، الذي كان سائدا في زمن الأربعينيات من القرن الماضي، وما بعد ذلك.. الأزياء التي قد لا نعرفها، وغالبا لا تذكر في الكتابات الروائية، ربما لعدم إحساس الروائي بأهميتها، مثل الدشداشة الخليجية، التي ما تزال قائمة حتى الآن، وتتنقل في الأزمنة جميعا، ملابس النساء مثل البطولا والبخنق، والعباءة، وكلها أزياء كانت سائدة، ولم يبق منها سوى العباءة، التي تطورت تطورا كبيرا في الآونة الأخيرة، وصارت لها زخارف وألوان شتى، بعد أن كانت مجرد غطاء أسود فضفاض، بلا أي إضافات.

لابد أيضا من وصف للبيوت في ذلك الوقت، وكيف كانت غرفا متجاورة، بلا معمار مميز، وأهم ما فيها فصل الداخل النسائي عن مجالس الرجال، وفي بيت واحد مثل غازي، معرض لغزوات الضيوف، وإقامة المناسبات فيه، لابد من مجلس كبير متسع، ولابد من خدمة جيدة، تقدم لمرتادي البيت، وهو ما كانت تفعله الزوجة مريم، بمساعدة أمينة الصامتة، المطيعة في معظم الأحيان، وما يتوفر من الجارات في كل وقت.

نحن نلم كذلك بتفاصيل الشتاء، ذلك القارس الصحراوي الذي يلسع الأماكن، ويحول الناس إلى كائنات بيتية. وحين تقرأ عن الشتاء في عباءة غنيمة، تحس أنك إزاء شتاء آخر لا يشبه الشتاءات المعروفة، أو أنك لم تعش شتاء من قبل، ذلك أن الكاتبة على لسان الراوي فيصل، تحول الشتاء إلى فصل يلسعك في ذهن القراءة.

المطر، ليس قطرات ماء، ولا حتى سيولا وعواصف فقط، إنما هو طقس حميم، يهابه الأطفال ويتذوقونه في الوقت نفسه، ويراقبون الدوائر، التي يصنعها إلقاء حجر في البحيرات المتكونة، وتخافه البيوت المهلهلة، بينما البيوت الراسخة مثل بيت التاجر غازي، تحوله إلى طقس منهزم، لا يمس منها شعرة، ويندلق ليغرق الطرق فقط.

ثمة قصص حب متعددة، بعضها نضج واستقر، وبعضها فتر كما تفتر قصص الحب عادة، قصة حب غازي ومريم، التي كانت مشتعلة حتى وقت متقدم من العمر، قصة بدور وفهد ابن العم، الذي كان معهم في البيت وغادر، ثم تحول إلى

عابر في الطريق، قد يعبر وقد لا يعبر، وتراقبه بدور الجميلة، الهادئة والجريئة، الساعية للتحرر أيضا، عبر فرجة في النافذة، تماما كما تراقب الحمام والمطر، إنه حبها الأول، الذي ستتزوجه بعد ذلك وتنتقل معه، تاركة قلب أخيها فيصل ينفطر، وكرهه لفهد يزداد. فيصل نفسه أحب وأخفق، وكثيرون في الرواية تعلقوا بالجمال وأفلتوه.

فماذا عن الجدة مزنة؟.. تماما ومثل أي جدة في أي مكان، تمتلك مزنة خزائن الحكايات وأسرار السرد الأسطوري، وقصص ما قبل النوم للصغار، وأيضا تمتلك الصوت الأكثر علوا في مجالس الحريم.. إنها الرمز الدال على الحكمة، والرسوخ، ولم يرد ذكرها لمجرد كونها جدة، وأعتقد أن دور الجدة عموما في المجتمع الخليجي، مهم جدا، إنها نقطة تجمع أفراد العائلة، حتى لو كانوا على خلاف.

وغنيمة، صاحبة اسم الحكاية، امرأة "درويشة" من أهل الله، وأعتقد أن العنوان الذي استلهمها كان موفقا جدا.. هنا نستلهم البساطة، وحسن النوايا والتناغم مع كل ما هو شعبي، وتراثي، ولعل الحوار الذي كان يأتي بالعامية الكويتية القريبة من عامية أهل الخليج عموما، يأتي على قلته مناسبا ومفهوما، وفيه كثير من الإضافة.

إذن ماذا عن الكويت الوطن، ذلك الوطن، الذي كان حتى بداية ستينيات القرن الماضي، يرزح تحت الحماية البريطانية؟.. نعم ستحصل الكويت على استقلالها، وسيحتفل النص بذلك، كما احتفل في صفحات عدة بفلسطين ومصر، والعرب جميعا.

لكن لابد من حذر، فنيل الاستقلال ليس نهاية الأمر، هناك دائما تربصات ومخاوف، وتجهمات وربما إحباط كبير، لكن الوطن لا يغرق رغم ذلك.

"عباءة غنمية" إذن رواية مهمة في السياق المعرفي والحكائي، كتبت بتناغم وجمال، ووضحت أفكارا كثيرة، بشيء من الجذب. وأظنها إضافة جيدة للأدب الخليجي، الذي تطور كثيرا.

ماذا عن مهنة الكتابة

يعتبر كتاب "مهنة الكتابة: ما تمنيت معرفته في بداياتي"، الذي يحتوي على شهادات لروائيين غربيين مهمين، والصادر حديثا عن دار تكوين الكويتية، باختيار وترجمة راضي النماصي، من الكتب التي ينبغي قراءتها لمن أراد أن يطرق سكة الكتابة، وأيضا للذي انغمس فيها، ولا يستطيع الخروج برغم كل مطبات ووعورة هذه المهنة التي تأخذ من الإنسان الكثير، ولا تعطيه سوى القليل، خاصة في عالمنا العربي، حيث الكاتب مجرد ممول إبداعي لدور النشر من دون أي عائد يذكر.

الكتاب يحتوي في الحقيقة على شهادات لكتاب عديدين منهم من نعرفه مثل التركية إليف شفق، والهندي حنيف قريشي، والياباني هاروكي موراكامي، ومنهم من يعرفه قليلون منا بسبب عدم وجود ضجة حوله، أو عدم وصول إنتاج وفير يخصه للغة العربية، مثل الإنجليزي غراهام سويفت.

ومعروف أن معظم القراء العرب حتى لو كانوا يجيدون لغات أخرى، يفضلون القراءة باللغة العربية، وطبعا كل قارئ يستمتع بلغته الأم، لكن أحيانا نود قراءة كتاب ما، سمعنا عنه كثيرا ولا نجده بالعربية، فنضطر إلى قراءته بلغته. وقد قرأت في هذا السياق كتبا عدة لم تصدر لها ترجمات بعد، أو صدرت بعد أن أكون قرأتها.

إليف شفق كانت شهادتها كلاسيكية، أي مطابقة لمعظم شهادات الكتاب وحتى العرب منهم، مثل القراءة المبكرة، ثم الكتابة أيضا في سن مبكرة، ومطاردة الكتب حيثما وجدت، ومحاولات مبكرة للنشر، حيث نشرت قصة قصيرة في مجلة، ثم لتنشر أول رواية لها وهي في الثالثة والعشرين، وتنطلق بعد ذلك، إنها تقرأ باستمرار، وتكتب باستمرار، وتتعلم كثيرا كلما قرأت وكتبت.

نعم هو حال كل الكتاب المجيدين، اكتساب المعرفة أولا، ثم إعادة إنتاج المعرفة مع خيال أدبي رفيع، وهكذا يعثر المتلقي على وجبة شهية، فقطعا يلتهمها، تقول إليف، إنها لم تكن أبدا تطمح لأن تصبح كاتبة بشكل جدي، لكن الذي يقرأ شهادتها هذه وحوارات كثيرة لها، ويقرأ ما أنتجته يدرك تماما أنها سعت لتصبح كاتبة كبيرة بالفعل، ومنذ وقت مبكر.

فالذي لا يود أن يصبح معروفا وجيدا في حرفته، ينتج بتكاسل وخجل، وقد ينزوي من رواية أو روايتين، بحيث لن يعثر عليه مؤرخو الأدب بسهولة، وقد لا يجده كتاب الأنطلوجيات أبدا. وعندي أمثلة عن زملاء بدأوا معنا مشوار الكتابة، وكانوا موهوبين، واكتسبوا شيئا من الثقافة والمعرفة، لكنهم لم يستمروا بسبب اقتناعهم بأنهم لن يصبحوا عظماء يوما، أو بسبب عدم الجدية التي ذكرتها إليف، ولم تكن من خصائصها هي ككاتبة.

شخصيا تعرفت على أدب إليف منذ سنوات، وقرأت أولا كما قرأ معظم الناس "قواعد العشق الأربعون"، إنها قصة متفردة عن الصوفيين، بالرغم من اختلاف العديد معها، لكنها عمل أدبي مكتوب بحرفية وجهد. بعدها قرأت أعمالا أخرى، مثل "بنات حواء الثلاث"، كلها ملهمة وذات نكهة.

ومثل معظم الكتاب الأتراك، هناك اهتمام من إليف بالتفاصيل الصغيرة، والصغيرة جدا، هي تكتب أشياء لا تخطر ببال المشاهد العادي، الذي يمر بها من دون ملاحظة، وأقول دائما أنني أحب التفاصيل في الكتابة الأدبية، بشرط أن لا تكون زائدة كثيرا ولا ترهق ذهني بمحاولة تخزينها واستعادتها.

هناك شهادة لحنيف قريشي، وهذا كاتب مهم آخر، في سياق الكتابة الغربية، ووصلت أعمال عدة له إلى اللغة العربية، وما زلت أذكر بكثير من الانتشاء روايته الجميلة "بوذا الضواحي"، ورواية "هدية غبريال" التي تتحدث عن الأبوة والبنوة، وروايته الفنتازية التي يستعير فيها كبار السن أجسادا وملامح شبابية، يمضون بها، إنه خيال ثري ومبهج.

حنيف لم يتحدث كثيرا في شهادته، هو حديث فلسفي قصير. أهمه أيضا ما ذكره بأنه لم يكن جديا في اتخاذ الكتابة مهنة، وإنها مجرد مصادفات صيرته بهذا الحجم، لقد ذكر شيئا عن الأقليات العرقية، وانتماؤه إلى أقلية غالبا لن تمنحه أفضلية في شيء، وحقيقة هذا المنطق ليس صحيحا في الغرب، وأي شخص من أي مكان، يعيش هناك، يمكنه بشيء من الاجتهاد المشروع، أن يفعل أي شيء، وأن يصبح أي شيء.

هاروكي موراكامي، الذي يعتبره الكثيرون في بلاد العرب من الأساطير، ذلك الذي يكتب مجلدات غاصة بالحكايات، ويمكن أن تصدر روايته في أجزاء عدة كلها بحجم من الصعب قراءته، يكتب شهادة طويلة ومفصلة. إنه لا يضيف شيئا إلى ما نعرفه عن طقوسه، وممارسته للركض، واحتفائه بالموسيقى والرقص، وفي الشهادة يذكر نصائح كلنا يعرفها، مثل القراءة ثم القراءة، ثم القراءة قبل إنتاج أي نص روائي. إنها النصيحة الكلاسيكية منذ الأزل، ونذكر الشاعر الذي قال لمبتدئ، احفظ ألف بيت من الشعر، ثم انس ما حفظت قبل أن تكتب.

لا أحد يختلف مع موراكامي، وشخصيا في متابعتي للكتابة الجديدة بقدر ما أستطيع، أعرف من قرأ وكتب ومن لم يقرأ وكتب، هناك كتاب جدد لا يحبون هذه النصيحة ويعتبرون الكتابة مطرا يهطل عليهم من دون سابق معرفة بمطر الكتابة. وللأسف هنا من يصدق ذلك، ومن يصدق أيضا أن كل من كتب قبل هؤلاء الجدد لم يكتب شيئا.

توجد في كتاب راضي شهادات لكتاب ربما لا نعرفهم جيدا كما قلت، لكن قطعا نعرف زادي سميث، وهي كاتبة جيدة جدا، كتابتها فلسفية عميقة، وشخصياتها غاية في الغموض، ولها في الكتاب شهادة عن كيفية الحديث عن عالمك.

نحتفي دائما بالكتب التي تمتعنا أو تعلمنا شيئا أو تقربنا من عوالم نعرف أصحابها عبر إبداعهم ونود لو اقتربنا منه.

حديث الألف- تجربة يوسف فاضل

منذ عام تقريبا حضرت في مكتبة ألف في الدوحة، لقاء مباشرا مع الروائي المغربي يوسف فاضل، وكان في حلقة من برنامج "حديث الألف" الذي تقدمه الكاتبة السورية سمر يزبك، لصالح فضاءات ميديا. البرنامج مبتكر جدا، وليس لقاء تقليديا، يحتوي على أسئلة تقليدية مكررة ومملة، يجيب عليها الضيف بلا اكتراث، بوصفها أسئلة لم تعد تعنيه، وقد تكررت عليه في لقاءات كثيرة من قبل، وكنت أنوه كثيرا إلى مسألة تحديد الحوار، إن كان لا بد أن تستضيف أحدا، خاصة إن كان كاتبا مجددا، أو لنقل مستمرا في الكتابة، ولم يقف عند فترة محددة.

ولعل مسألة تكرار الأسئلة هذه، ناجمة من عدم رغبة كثير من الصحافيين ومقدمي البرامج في الاجتهاد والإتيان بما هو جديد، وتفضيل استعادة ما هو مكتوب أصلا في الإنترنت، منذ زمن. أيضا صعوبة قراءة أعمال المبدعين لأسباب كثيرة، منها عدم توفرها في متناول اليد، أو غلاء أسعارها.

سمر يزبك بصفتها كاتبة مبدعة، تعرف تلك الأشياء وربما عاشتها، وأجابت من قبل على الملل بملل أكثر، لذلك نجد أسئلتها في البرنامج جديدة تماما، ومستخرجة من لحم النصوص التي لا بد قرأتها بتعمق، قبل أن تستضيف أحدا، وهذا بالطبع يثري الحوار ويشجع الضيف على الاسترخاء وابتكار أجوبته التي قطعا ستكون سلسة ومقنعة.

هناك قرآءة واضحة من مقدمة البرنامج لعالم الكاتب، ومواضيعه المحببة، وأسلوبه في الكتابة، وأي الزوايا يختارها لالتقاط مشهد ما، وتلك التي يختارها لتكون مظلمة داخل النص، أيضا تلم بشخصيات الكاتب وتوجهاتها، وسبب وجودها في النص، وعدم وجود غيرها، ولماذا هذه الشخصية ممتدة بحجم النص، وتلك انتهى دورها في الصفحات الأولى.

هذا يحدث دون أي تدخل في المهمة الإبداعية، ويبدو للمشاهد والمستمع، شراكا عدة لجر عالم الكاتب إلى أذهاننا، وبالنسبة ليوسف كانت كتابته مهمة في أدب السجون، هو يحتفي بالحرية التي ينبغي أن يعيشها كل حر، ويوضح بجسارة ظلمة السجون، وظلمها، وقد وضح بجلاء عن استلهامه لهذه الأجواء من قصص حقيقية عرفها أو عاش جزءا من فصولها، لكن بالطبع، خلطها بالعالم المتخيل لينتج رواياته.

أيضا تحدث يوسف عن أسلوب الكتابة عنده، وأيد ملاحظة مقدمة البرنامج، إنه يستخدم بدايات يعثر عليها بصعوبة، ويعيدها ويكررها في ذهنه زمنا، لينتج في الذهن شبه نص، يتحول بعد ذلك إلى نص على الورق، إنه لا يبحث عن الأفكار، لكن يجدها، وهذا بالضبط ما يحدث لكثير من الكتاب الموهوبين، أو الممتلئين بالشغف الكتابي، ودائما ما تقفز العناوين التي ستخرج بها النصوص إلى الناس من خلال جمل وردت داخل النص، أو كلمة رددها أحدهم، أو فجأة على الكاتب بعد أن ينتهي من عمله، أو اقتراح من صديق شارك في قراءة النص مخطوطا قبل طباعته، وهنا أوضح الكاتب، أنه يثق في عدد من أصدقائه، ويرسل لهم أعماله مخطوطة لإبداء الرأي.

وكذا نجد عناوين مثل: طائر أزرق نادر يحلق معي، أو: قط أبيض جميل يسير معي، وأعتقد أن الشعر واضح في هذين العنوانين، ووضح الكاتب دلالتهما أثناء الحديث.

هناك أيضا فقرة مبتكرة داخل الحوار، حيث تأتي مذيعة أخرى، في كل مرة، لتقرأ نصا مجتزأ من عمل للكاتب، معطية الحضور لمحة مهمة من عالمه، وأظنها طريقة جذابة للتنويه عن كاتب ربما لا يعرفه البعض.

عالم يوسف عريض، وتجربته كبيرة وممتدة، وما زال يبدع في هذا العالم، ولديه جديد في كل مرة، ومؤكد لديه من يتابع هذه التجربة، وينتظر ما تجود به دائما، وشخصيا قرأت روايتين من هذا العالم وأجدهما متميزتين، وهناك ما هو جديد فيهما، أمدني بما لا أعرفه عن البيئة المغربية، وكيفية تشكيلها، وكلنا لا بد قرأنا لكتاب مغاربة من أجيال مختلفة، لكل منهم تجربته،

وطبعا نعرف رواية محمد شكري الرائعة "الخبز الحافي" وأعمالا لمحمد برادة والطاهر بن جلون وربيعة ريحان وعبد الكريم جويطي وغيرهم من المبدعين.

حديث الألف أيضا قبل نهايته، يتيح الفرصة للجمهور من الحاضرين، محاورة الكاتب، وسؤاله عن عالمه، أو ما لم يفهمه القارئ فيه، وقد ذكر أحد الملمين بالتجربة من الحاضرين مسألة إحساسه بوجود زخم كبير، ومواقف كثيرة جدا في النصوص، دون أن يكون ثمة خيط درامي يضفرها ببعض، فوضح الكاتب قائلا، إن الخيط موجود، وهذا الزخم لا بد من وجوده، إنها سمة من سمات أسلوبه، وتعامله مع النصوص التي يكتبها.

أكثر ما لفت نظري في لقاء الروائي يوسف فاضل قوله، إنه لا يعود إلى نصوصه بعد إرسالها إلى الناشر قط، فالنص ينتهي عنده بمجرد خروجه من الحاسوب، لذلك هو لا يتذكر جيدا كثيرا من الأشياء والحوادث والأسماء.

هذه الفقرة تبدو غريبة فعلا، فكلنا يعود إلى نصه بين حين وآخر، وهناك من تطارده بعض شخصياته إلى الأبد، ومن يتذكر فجأة موقفا في نص كتبه منذ عشرين عاما، ويتمنى لو عاد وكتبه بطريقة أفضل.

عموما برنامج حديث الألف مختلف فعلا، ويقدم الكاتب باحترام وجمال.

إعادة الكتابة والتفاصيل

اعتدت من حين لآخر أن أعود إلى أعمال كتبتها قديما، ونشرتها، وأيضا أعمال مهملة كتبتها ذات يوم بفعل إيحاءات ما، ولم أنشرها أو لم تكتمل أصلا، أعود باحثا عن نقاط ربما أكون أغفلتها، وكان من الممكن أن تضيف شيئا. والحقيقة هو غالبا ليس إغفالا لشيء بقدر ما هي حدودي في وقت كتابة تلك الأعمال، وما قد أعثر عليه من ضعف سيكون نتاجا طبيعيا للخبرة التي جاءت بعد ذلك.

وبناء على ذلك أعدت كتابة عملين منشورين من قبل، ونشرتهما من جديد، مع النضج الجديد، ونجحا كثيرا من الناحية القرائية، وتأكد لي أنه فضول من القراء للمقارنة بين الصيغة الأولى القديمة، والصيغة الجديدة، خاصة في العمل الذي كتبت في مقدمته، إنه إعادة كتابة لنص بعينه.

كان ثمة سؤال يراودني وأنا أتطفل على نصوصي التي ولدت وظهرت للناس، لأعيد ترميمها ونشرها: هل من حق الكاتب أن يفعل ذلك بنصوصه؟ أم من الأفضل أن تترك الأعمال كما هي، لتؤرخ بجدية وصدق تطور المبدع، وأن يجد من يتابع التجربة أن هناك مشروعا حقيقيا، سلك طريق المشاريع التي قد تبدأ ببساطة، وتتعقد أو تتسع بعد ذلك؟

في شهادة للروائي الياباني هاروكي موراكامي ذكر مرة أنه يعيد كتابة أعماله المنشورة، من حين لآخر، بغرض البحث عن النقص وإكماله، لكن ذلك لا يتعدى طاولة كتابته. هو يتعلم أو يتدرب على الكتابة، وربما تمنحه إيحاءات جديدة، خاصة أن روايات موراكامي، كثيرة الصفحات، وفيها حيوات متعددة، ومتشابكة، وممكن جدا أن توحي أي قصة جانبية داخلها بعمل جديد.

بالنسبة لي أفعل ما يفعله موراكامي، مع الفارق أنني أتجرأ على إعادة النشر، وأواجه القراء الذين ربما يحسون بالغرابة تجاه ذلك، ومنهم من يهاجم الكاتب على فعله، ويصفون النسخة الجديدة من العمل بأنها تشويه للعمل الأصلي. وصراحة تبدو المسألة في النهاية مزاجا كتابيا من كاتب، يقترفه من دون النظر لأي عواقب.

أيضا بالنسبة للنصوص المنشورة لكتاب آخرين، يحس القارئ المتمكن أحيانا أن هذه النصوص فيها كثير من النقص وكانت ستكون أفضل لو أضيفت إليها، أو حذفت منها مقاطع معينة، خاصة في الكتب الضخمة الغاصة بالتفاصيل غير الضرورية أحيانا. مثلا يمكن وصف بيت معين، تدور فيه أحداث معينة داخل رواية، بما يمنح النص حضورا في الذهن القرائي فقط، ويضيف إلى جو الكتابة وأحداثها، ليس من الضروري أبدا كتابة عدد الكراسي الموضوعة في الصالة، وعدد الأكواب والأطباق داخل الفضية الموجودة أيضا، وهل هناك مفارش على الطاولات أم لا؟ إنها كتابة مضجرة صراحة، وتزيد عدد صفحات الكتاب من دون إغناء للكتابة، لكن هناك من يفعلها في الغالب لأن أسلوبه في الكتابة هو هكذا، ونعرف في صناعة الكتابة أن الروائي يعيد قراءة نصوصه بعد الانتهاء منها، لتقييمها، والبحث عن متعة ما داخلها، بوصفه قارئا أولا لها، ولا أدري هل يجد كتاب التفاصيل الكثيرة جدا، متعة فيها؟

كنت مرة أقرأ رواية "ألعاب العمر المتقدم" للإسباني لويس لانديرو، ومن ترجمة الراحل صالح علماني، وكانت تتحدث عن موظف بسيط يتعامل بالهاتف في إرسال طلبيات تجارية لشخص ما في مدينة أخرى. وتنشأ عبر الهاتف صلة قوية بين الموظف غريغوري، والشخص البعيد الحالم بزيارة العاصمة، التي يجمّلها له غريغوري ويصنع منها عالما أسطوريا، أيضا يصنع من نفسه شخصا مهما وشهيرا، وهكذا.

الرواية بهرتني في البداية، فكرتها عظيمة وكتابتها عظيمة أيضا، وترجمة علماني معروفة بجديتها وشاعريتها، وألوانها المبهرجة، وقلت أن صالح كان يكتب النسخ العربية للأعمال المكتوبة بالإسباني أكثر مما كان يترجمها. لكن بعد قراءة صفحات

عديدة في كتاب عدد صفحاته أكثر من ستمئة، يبدأ الملل من التفاصيل اليومية المكررة، نحن في مكان أو مكانين، وداخل خيال البطل الذي لا يتغير كثيرا، في وصفه للمسرح وما يقدم عليه، ووصفه لمقاهي المثقفين التي لم يزرها من قبل، وحديثه عن أشخاص لامعين لا يعرف عنهم شيئا، بوصفهم أصدقاءه الذين يجلس معهم يوميا، ثم حديثه عن علاقته بزوجته وأمها.

تفاصيل كثيرة ويومية، نقرأ صناعة الوهم بتفاصيله نفسها عند غريغوري، وصناعة النهم عند رفيقه على الخط الآخر، ونعود لبؤس اللحظة والفقر في بيت البطل، وهكذا.

في رأيي الشخصي أن متعة الرواية كانت في إدخالنا إلى ذلك العالم الغريب، ثم غرسنا فيه، وكان من الممكن أن تجعلنا نتلظى أكثر بمتعة القراءة، لولا التفاصيل الكثيرة المكررة التي خفضت من المتعة. لكن كما قلت، لعله أسلوب الروائي، الذي اختطه لنفسه، ولا يجد فيه أي ملل حين يعود إلى نصه قبل إرساله إلى الطباعة.

موراكامي نفسه يعشق الكتابة الطويلة المليئة بالحكايات الفرعية والمتشعبة، ولا يكتفي في بعض الكتابات برواية واحدة، لكن يصنع جزئين وثلاثة أجزاء، مما يجعل من قراءته درسا صعبا، وتحتاج إلى تفرغ تام. لذلك حين كنت أقرأه، أكتفي بجزء واحد يستغرق مني وقتا. ولا أدري في شهادته التي ذكرها عن إعادة كتابة أعماله من دون إعادة نشر، هل يختصرها، أم لعله يزيد في فقرات جديدة. عموما الكتابة الإبداعية ستظل هكذا موجودة بشتى حيلها وضروبها، والكتاب عشاق التفاصيل أو عشاق السرد المكثف سيظلون موجودين. ولا بد أن أذكر أيضا أن هناك قراء لا يستطعمون النصوص إلا إذا كانت طويلة، ومليئة بالتفاصيل غير الضرورية، إنهم ينظرون إلى حجم الكتاب أكثر من مادته. ومؤكد لم يقرأوا "أشياء تتداعى" للنيجيري تشينوا أشيبي، إنها رواية في حوالي مئة وخمسين صفحة، لكنها رواية حقيقية.

اليوم العالمي للكتاب

بمناسبة اليوم العالمي للكتاب، الذي يصادف يوم 23 أبريل/نيسان من كل عام، نتساءل دائما: ما معنى ذلك اليوم؟ وما أهميته للكتابة والكتاب، ونعرف كلنا أن صنعة الكتابة ليست على ما يرام، حيث طالتها شوائب كثيرة، وصنعة تذوقها والمساهمة في نشرها أيضا ليست على ما يرام، نعرف المعاناة التي يكابدها الكتاب من أجل نيل الحقوق، والمعاناة التي تكابدها المكتبات من جراء تكدس الكتب على رفوفها، واضطرار بعضها إلى الإغلاق أو تغيير النشاط إلى سلع رائجة، إن لم تأت بالربح لا تأتي بالخسارة، وأذكر قبل سنوات عدة، أننا في أي مدينة من مدننا العربية، لا نستطيع إحصاء عدد المكتبات من شدة كثرتها وتنوعها، واحتفائها بالكتب، لتصبح الآن مجرد دكاكين عادية تبيع المعلبات وكراسات الرسم والأدوات المدرسية، وغيرها من السلع الرائجة، إلى جانب عدد قليل من الكتب، لا يتعدى أصابع اليد الواحدة، وغالبا ليست من الكتب التي يستطعمها القراء.

نعرف أيضا بالقرصنة، أي سرقة الكتب وهي طازجة، لم يجف حبرها بعد، لتنشر في مواقع إلكترونية مجانية، بوصفها تقدم خدمة للناس، ونسعى، نحن المعنيين بالأمر، لمحاربة تلك القرصنة بإغلاق الكثير من هذه المواقع، لكن ما يلبث مؤسسوها أن ينشئوا مواقع أخرى، أكثر وقاحة، وكنت قرأت مرة في أحد هذه المواقع إعلانا يقول: يمنع نسخ أو سرقة محتوى هذا الموقع دون إذن المالك. وبما أن المالك نفسه قرصان سطا على جهود غيره، فإن وجود هذا الإعلان يبدو مضحكا فعلا.

حين يتحدثون عن اليوم العالمي للمسرح مثلا، أو اليوم العالمي للرقص، نسمع ونشاهد عروضا تقدم، وكلمات رنانة تقال، ومشاريع في الخفاء يعلن عنها، لكن يوم الكتاب يأتي بلا حس ويذهب بلا حس، لا تسمع عن عروض من ناشرين لطباعة ونشر كتب للموهوبين مساهمة في إسعاد الكتابة والكتاب، لا ترى مسابقات مهمة بجوائز مشجعة، لا ترى حفلات رائجة يغني فيها أحد للإبداع، ولا شيء سوى كلمات متفرقة في مواقع التواصل الاجتماعي، يكتبها في الغالب محبطون، لم ينالوا شيئا من الكتابة، أو آخرون يستعرضون فيها قراءاتهم للكتب، وكيف دخلوا مجال القراءة، ولم يخرجوا منه مرة أخرى.

أنا سأعتبر نشاط مواقع التواصل الاجتماعي في هذا الشأن، إيجابيا، على الأقل هناك من يذكر الكتب بالخير، ويذكر الناس بالكتب التي يعتقد أنها مهمة، وربما التقط أحد اقتراحاته وبحث عن تلك الكتب، ولأن المطروح في الساحة كثير جدا، وصعب ملاحقته، تصبح مسألة التنويه عن كتب معينة، من أشخاص موثوق في أذواقهم، مهمة جدا. والذين يتابعون صفحات الثقافة في تويتر أو فيسبوك، سيتعرفون قطعا على أشخاص بعينهم، لديهم خبرة جيدة في اصطياد الدرر ونثرها، ولو ذكروا كتابا معينا بالخير، سيكون كذلك، ولن يخيّب الآمال، من هؤلاء إبراهيم عادل زيد في مصر، وهذا رجل شديد الاهتمام بالكتب، يتابعها منذ أن تكون مجرد أفكار في أذهان أصحابها، حتى تخرج نصوصا. أيضا توجد خلود عبد الكريم في السعودية، وهذه تهتم بكل ما هو جديد ومختلف، ويمكن أن تزور إسطنبول، ولا ترى سوى مكتباتها. ولا أنسى أصحاب القنوات المهتمة والنشيطة في يوتيوب، مثل عمرو المعداوي.

في السودان قبل مأساة الحرب اللعينة، كان معظم الناس عشاقا للكتب، إنهم قراء يبالغون في استدراج الكتب إلى أذهانهم، والاندماج معها، ومدحها أو ذمها بعد ذلك، وعلى الرغم من الظروف التي لم تكن أبدا طيبة في السودان، في أي يوم من الأيام، وحتى قبل نشوب الحروب، وتعاقب الانقلابات، ستجد مكتبة مثل الدار السودانية للكتب، مليئة بكل ما يصدر في الوطن العربي، كنت أزورها وأحس بعظمتها، حين أعثر على كتاب ظللت أبحث عنه زمانا، متوفرا هناك، ولا أذكر أنني شاهدت تلك المكتبة خالية من الزبائن، إنها مزدحمة دائما ولا يخرج منها أحد بلا كتاب.

كذلك كان نور الهدى محمد، صاحب مكتبة عزة، مهووسا بجلب الكتب من كل مكان، هو يجلبها مهما كان ثمنها ويعرضها بلا ربح، من أجل خاطر الشعب القارئ، ويحسب لنور الهدى دوره في نشر الكتاب السوداني، في الداخل والخارج، حين كان يوجد في كل المعارض العربية وبعض المعارض الأجنبية، أيضا كان لدار عزة للنشر، دور ريادي في طباعة الكتب للشباب، وإعطائهم حقوقهم بلا أي تقصير. وكنت حين أزور بلادي، أحس باللهفة لزيارة مكتبة عزة، إنها لهفة لم أكن أخرج معها صفر اليدين.

الآن كم يوما من الأيام العالمية للكتاب مرت علينا، منذ أن ابتدع هذه اليوم السنوي؟ وهل ثمة أمل في الكتاب العربي، أن يتحقق له شيء، أو يأتي جيل متحمس لغسل عار الكتابة المجانية، واعتبار المؤلفين إخوة وآباء وأعماما، وحتى مساكين ينبغي إكرامهم؟

لا أعرف، صراحة لا أحد يعرف، فحتى في عز هذه البلبلة الاقتصادية، وازدحام الأيام بالحروب، والمفخخات والطائرات المسيرة، وفقدان الوظائف، توجد دور نشر جديدة، تنشأ هنا وهناك، يوجد سوق ومعارض، ودعايات وكل ما يمكن أن يحدث في مواسم الرخاء. لكن ما زال الكتاب مسكينا، والكاتب أشد مسكنة، واليوم العالمي للكتاب، ليس يومنا بالتأكيد.

المقاهي القديمة

في زيارتي الأخيرة العام الماضي، عرجت على وسط البلد حيث المقاهي التي كان يجتمع فيها المثقفون، من شتى المعتقدات والأفكار، في ما مضى، يتناقشون في أشياء قد تبدو مهمة، وأحيانا بلا معنى/ ولكن ثمة ثراء كبيرا في تلك اللقاءات، وكثير من المتعة، ولا بد لأي وافد مبتدئ أن يتعلم شيئا، وقد حدث معي ذلك.

كان مقهى ريش مثلا، في تلك الفترة التي عرفته فيها، وكنت طالبا جامعيا، آتيا من طنطا، مرة في الأسبوع، ما يزال واسع الصدر، ويمكن لأي شخص الجلوس فيه/ كان بعض الأصدقاء يوجدون هناك أحيانا، وأذكر أنني تعرفت بالشاعر مهران السيد، وكان أقرب للصمت والتأمل، ولم تتكون بيننا أي صداقة/ أيضا تعرفت بالشاعر العظيم محمد عفيفي مطر، وكان يجلس محاطا بالشعراء، والمعجبين بشعره، وقد أصدر في تلك الأيام من نهاية الثمانينات، ديوانه "أنت واحدها، وهي أعضاؤك اندثرت". كان اسما غريبا لديوان شعر، وكان الشعر بداخله كثير الإدهاش والغموض، ولأني كنت شاعرا في تلك الأيام، ودخلت إلى تلك المنطقة بهذه الصفة، فقد استفدت كثيرا من قصائد الديوان، خاصة تلك القصائد الدائرية التي أبهرتني فعلا.

لكن عفيفي كان يخبئ البوح داخل تلك الرموز، وكان شاعرا كبيرا وواعيا بما يكتبه، وأظن أن تجربته لم تنل حظها من الانتشار، كما حدث لشعراء عرب من جيله، أو حتى الأجيال التي بعده. وأقول دائما إن ضخامة التجارب وغزارة المعرفة داخلها، قد تعوق البحث فيها بجدية، في زمن يجنح فيه الباحثون إلى ما هو أسهل في التناول.

أيضا كان الناقد عبد الرحمن أبو عوف يتواجد في ريش دائما، ويأتي مبدعون من أمثال سعيد الكفراوي، ومحمد سليمان وعبد المنعم رمضان، وكثيرون لم أنسهم لكن من الصعب تعدادهم.

عموما لم يكن ريش هو المكان المفضل دائما، وكان مقهى زهرة البستان الشعبي إلى حد كبير، والذي ما زال شعبيا، هو المكان الأفضل والأرخص والذي يتيح حرية الجلوس في الهواء الطلق، من دون التزام بتوفير سقف أو حوائط أو مقاعد فاخرة، أو شيء غير الشاي والقهوة.

لقد كنت إذن في كل الزيارات تقريبا، أمد رأسي، وقد أجلس قليلا في ريش، وفي النهاية أنزاح إلى زهرة البستان، هناك أستطيع التحدث كمبتدئ. وأن ألقي قصائدي كشاعر يبحث عن النصح، والنضج، وأن أتعلم الكثير من نقاش رزين عن رواية صدرت تلك الأيام، وقرر أحدهم أنها تستحق النقاش. وهذا ما حدث مع رواية "العطر" للألماني باتريك زوسكيند، حيث كان الترويج لها كبيرا جدا ومندفعا، لدرجة الحدة. وحين قرأتها بعد ذلك، لم تخيب ظني، والرواية نفسها أصبحت من أيقونات السرد عالميا بعد ترجمتها للغات عدة.

قلت إن زهرة البستان كان مقهى شعبيا، ضاجا، وممتلئا بصخب الشعراء والكتاب، والباحثين عن قهوة غير مكلفة. كانت المقاعد مشتتة في الزقاق الممتد من مقهى ريش، إلى الشارع الذي يفتح عليه المقهى، الطاولات دائما مشغولة، والثرثرة موجودة، وربما تجد من يلعب الدومينو على طاولة أمام باب المقهى مباشرة.

لقد عرضت تجربتي المتواضعة آنذاك على الشاعر محمد سليمان، وقد اخترته بعد أن قرأت ديوانه "القصائد الرمادية" الذي صدر في تلك الفترة، وكان عظيما، تمنيت شخصيا لو كتبته. وقد أكرمني سليمان برعايتي في فترة كتابة الشعر، وعاتبني كثيرا بعد ذلك، أنني تخليت عن الشعر مبكرا من أجل السرد، لكن لم يكن ذلك بإرادتي.

عبد الحكيم قاسم، الذي أعتبره من الكتاب القليلين المؤثرين في الأدب العربي بالرغم من إنتاجه القليل، جاء في أحد الأيام وكان يمشي متكئا على عصا بسبب المرض، وعانقته عناق الأصدقاء بالرغم من أنه لا يعرفني، ثم لتنشأ بيني وبينه، صداقة

جميلة، نصحني خلالها بالاتجاه للسرد، حتى رحل.

تذكرت كل ذلك وأنا أجلس على طاولة خالية في زهرة البستان، طاولات كثيرة منتشرة، وامتدت إلى الشارع الرئيسي، ويجلس عليها شباب من الجنسين، لا أعرف منهم أحدا، ولا أعرف إن كانوا مبدعين أم زوار مقهى عاديين بلا أي هم اسمه الإبداع.

كنت أتلفت في ذعر، أتلفت بجدية باحثا عن عبده جبير، وأعرف أنه مات. أبحث عن عمر نجم، وأعرف أنه مات منذ زمن بعيد، وهو في قمة شبابه وتألقه. أبحث عن آخرين كانوا علامات في المكان، ولكن غيبهم الموت أو العزلة التي اختاروها واختارتهم، وأظن أن هذا طبيعي جدا، أن توجد المقاهي القديمة دائما، ولكن يختلف الرواد من زمن لآخر.

ولأن المقاهي لم تعد المكان الأمثل لتبادل الآراء، والترويج للإبداعات وحتى الثرثرة العادية، بعد أن ظهرت الإنترنت، وسطت على حقوقها منذ زمن، فلا يجب التوقع بوجود أديب أو مثقف جالس هناك، إلا لو كان ثمة موعد، وأنا لم أكن على موعد مع أحد. فقط كانت رغبة الماضي في جر الحاضر إليه، ومحاولة غير مجدية لاستعادة الزمن الذي بدأت فيه، والذين بدأت معهم أو لحقت بهم في سكة الكتابة ولكن لم يكونوا موجودين.

لكن أعتقد في النهاية، أن هناك أماكن أخرى يمكن أن يجتمع فيها المبدعون هذه الأيام، مثل الفعاليات الكثيرة المستحدثة هنا وهناك، مثل حفلات التوقيع على الإصدارات الجديدة، مثل (الكافيهات) التي من شدة انتشارها، تزاحم الشوارع في اتساعها.

إنها التغيرات، ونخضع دائما للتغيرات.

أسئلة الحرب

منذ أكثر من عامين، تدور حرب بشعة وثقيلة الوطأة في السودان، قلت مرة إنها لم تقض على الأخضر واليابس فقط، لكنها اخترعت يابسا جديدا، قضت عليه أيضا.

والمتابع لمسار تلك الحرب وتشعباتها وآثارها الجانبية، قد يصاب بالذهول، أن لا أمل في أي شيء حتى الآن، وأن وطنا بحجم السودان وصيته الجغرافي، والإنساني وتاريخه، الذي تغنينا به وما نزال نتغنى، قد يموت تماما دون أي رغبة من أهله في إنقاذ ما تبقى من روحه.

في الأيام الماضية، انشغل الناس الذين نزحوا وتشردوا في الأرض، ودخلوا إلى بلاد أخرى بوسائل قانونية وغير قانونية، بالبحث عن بيوتهم افتراضيا في الخرائط التي قالت شركة غوغل إنها حدثتها خصيصا للسودانيين. كنا نبحث لاهثين ومقطوعي الأنفاس، قد يجد أحدنا بيته وبيت جاره وبيوت أهل الحي كلهم، وقد يعثر على كل شيء ما عدا بيته، وقد لا يعثر حتى على الحي الذي ولد ونشأ فيه، وهكذا زمن عصيب انقضى، وتأتي أفكار أخرى كل يوم، أقواها حلم العودة من الشتات لأناس لم يحبهم الشتات، ولم يستطيعوا أن يأكلوا حتى لقما قليلة، أو يجدوا تعليما لأبنائهم، أو يسكنوا بيوتا تؤوي من التشرد.

ولأنني من المتابعين لكل هذه التداعيات، والمضاعفات التي أعرفها عادة في مادة الحروب، ولم أتوقعها تحدث لدينا، أصادف آلافا من القصص الإنسانية المبكية، خاصة قصص الذين يعبرون عن طريق التهريب عبر الحدود إلى دول الجوار، هناك من يقل هؤلاء في سيارات مكشوفة وغير آمنة، وربما يبيعهم لقطاع الطرق هنا وهناك، حيث يجردونهم من كل ما يحملونه، كزاد لأيام قاتمة في البلاد التي سيلجؤون إليها، ويتركهم في الصحراء، أيضا قد تنقلب العربات غير الآمنة، وقد يسقط طفل أو امرأة في الطريق ولا يتوقف أحد لالتقاط من سقط. وفي مساحة شاسعة من اللاأمل، يتحرك أمل محدود للغاية، كلما سمع الناس عن مفاوضات تحدث، وتعهد دولي لإنهاء الحرب، ولجان تسافر وتأتي وتقوم وتقعد واتصالات، وخطابات محلية عن قرب انتهاء الحرب، يتضح أنها مجرد خطابات محلية بلا لغة صلدة، ولا واقع حتى لو كان هشا.

ذكرت كل ذلك لأن رسائل كثيرة تصل إليّ، ولا بد تذهب لغيري من الذين يكتبون، أو يلتصقون بالآداب والفنون: ما دور الأدب في هذا الشأن؟ ماذا قدم وماذا يمكن أن يقدم، وهل هناك رواية سودانية مقبلة بعد الحرب لتصف بدقة وخيال أيضا، ماذا حدث؟

هـ

في الحقيقة أن تعاطي الآداب والفنون، أصبح أمرا مرهقا في هذا الزمن، كل يوم حدث جديد، وفي كل لحظة ثمة سوء ينبغي معالجته، وأمور أفلتت من زمامها، ومتاريس، ومشاريع للقسوة لم تحدث في أي عصر، ونرى بأعيننا يوميا، تلك الإبادة المرعبة التي يتعرض لها أهل فلسطين، دون أي ذنب سوى أنهم شعب يملك حقا، اغتصبه مغتصب، وما يفعله، جزء أساسي من نهج الاغتصاب. قلت إنهم يسألون عن تفاعلنا مع الحرب، وماذا فعلت لنا وبنا، نحن من ندعي كتابة الواقع الموازي، كبديل جيد أو غير جيد للواقع الحقيقي، لا يهم. منذ البداية رفضنا الحرب كخيار سام فعلا، لبلد ثري جدا لكن لا أحد يغرق في ثرائه باستثناء قليلين، أخذوا كل شيء، ولم يكلفوا أنفسهم حتى ردم حفرة في شارع الجمهورية في الخرطوم، أو إيقاف عمود إنارة منحن في شارع المطار، أو توفير الشاش ومحاليل إنقاذ الحياة في مستشفى ريفي لا يخرج منه مريض يدخله.

لا للحرب، كانت جملة رافضة مهمة لكن في السياق النظري فقط، فلا يوجد كاتب أو شاعر يستطيع إخراس المدفع إن نطق، أو كسر جنازير الدبابة إن عوت في الطرق، لا يوجد بيت شعر مهما كان قويا وبليغا، أن يخرج مسلحا مرتزقا من بيت يسكنه، ويدمره إذا اضطر للخروج منه. الأمر ينطبق على الروايات والقصص أيضا، مؤكد توجد قصص قصيرة كتبت في هذا الشأن، أستطيع أن أخمن أنها قصص معاناة استخلصت من بعض الذين عانوا وقد تكون تمت صياغتها أدبيا، لتنضم لمشاريع الأدب، كذلك أخمن أن عشرات الروايات مقبلة، خاصة من الكتاب الذين رابطوا في الحمى، ولم يخرجوا من أحيائهم، على الرغم من أن الموت كان يحوم حولها، وربما يدخلها فجأة بلا استئذان، ونعرف كثيرا من هؤلاء، منهم أشخاص معروفون ماتوا بطلقات مدافع دخلت بيوتهم غير الآمنة، وبالنسبة للذين نزحوا داخل الوطن إلى أماكن أكثر أمنا، أولئك لديهم قصصهم أيضا عن الجوع والفقر، والبحث عن رزق، في وقت توقف فيه الرزق تقريبا.

نعم ستكتب الرايات، وستقول بخيال كاتبها ما قالته الحرب وما لم تقله أيضا، والمحصلة زخم أدبي كثير، قد لا يجد من ينشره، وإن نشر قد لا يجد من يقرأه، وإن تمت القراءة، ماذا يكون قد قدم للوطن؟

في رحلتي الكتابية الطويلة، التزمت دائما بخيط من التفاؤل، أقول دائما أن شيئا ما سيحدث ويحسن ظروف الكتابة والكتاب، شيئا سيحسن ظروف النشر، وستأتي الحقوق لكل صاحب حرف، لكن الخيط، ينقطع أحيانا، ويعود مع بادرة ما، وبالنسبة للنصوص التي تكتب، أحتفظ بتفاؤل أيضا، إن فكرتي قد تصل لكثيرين. لكن ما سيكتب عن الحرب، أجزم أن لا تفاؤل فيه، حتى بعد أن تتوقف الحرب إن توقفت.

الذي سيحدث، أننا سنتوقف لنرثي من فقدنا، ولا شيء آخر.

تذوق لا حكم

في فيديو كان انتشر في الصفحات السودانية من وسائل التواصل الاجتماعي، ثمة قارئ عربي مخلص ومتذوق للأدب عامة، يتحدث عن اختياراته الخاصة من الأعمال التي قرأها في الأدب السوداني، ويرشحها للقراءة لآخرين من متابعيه.

وكان من بين هذه الأعمال المرشحة، نصوص للطيب صالح وحامد الناظر وآخرين.

القارئ لم يقل أبدا إن هذه خلاصة الأدب السوداني ولا شيء قبلها أو بعدها. ولم يتعمد بالتأكيد تجاهل كتاب كبار يعتبرهم البعض أيقونات من المفترض معرفتها وقراءتها وترشيح أعمالها للقراءة، وما فعله إجراء عادي وروتيني يحدث دائما. ونحن نتابع في موقع "غود ريدز" المعروف، وغيره من صفحات القراءة التي تنشئها مجموعات مهتمة، آلاف الناس الذين يعرفون بعض من كتبوا ولا يعرفون الكل، أو قرأوا للبعض ولم يقرأوا للبعض الآخر وأيضا ربما أعجبتهم كتابة أحد ولم تعجبهم كتابة آخرين قد يكونون أعلى مستوى، وهكذا.

وكنت ذكرت مرة أنني لم أسمع بكتاب حائزين على جوائز عالمية إلا متأخرا جدا، وحتى الآن لم أقرأ لكتاب حائزين على جائزة نوبل إلا بالقدر الذي يجعلني ألمّ بأساليبهم. وهذا هو المطلوب في زمن لا تستطيع فيه القراءة لكل الناس، كما أنك ككاتب لا تستطيع إرضاء كل الناس، ولا جعل كل الناس يعرفونك حتى.

مثلا لا تعجبني كتابة نجوجي واثيونغو، بالرغم من كونه أسطورة كتابية أفريقية، وأعماله غنية بالميثولوجيا والتاريخ والخرافات، بينما يظل تشيتيا تشيبي معلما لي وواحدا تمنيت لو عرفته إنسانيا كما عرفته إبداعيا. وحين انتشرت رواية "الخيميائي" للبرازيلي باولو كويلهو وقدمت للدنيا كاتبا سيصنع أسطورته الكبيرة بعد ذلك، سعيت وراءها منساقا خلف التقييمات المرتفعة، والمراجعات التي تمجدها كل تمجيد. قرأتها باندفاع شديد، ولم أعثر على الطعم الذي كنت أبحث عنه، الطعم الذي تذوقه العالم وجعل بعده الكاتب أسطورة، قرأت بعدها "الجبل الأصفر" و"فيرونيكا تقرر أن تموت" ثم توقفت.

كان كويلهو كاتبا رائجا بلا شك، لكن لم يتوافق معي.

ولعلي أقول لأول مرة إنني أكملت "ظل الريح" لكارل رويس زافون بشيء من المتعة، لكن حين قرأت "لعبة الملاك" التي كان بطلها كاتبا سيكتب ديانة جديدة، وباقي الأعمال، لم تكن هناك أي متعة، مجرد قراءة فقط اكتملت بصعوبة في الغالب.

حتى هاروكي موراكامي نفسه هناك من يعتبره هرما صانعا للعجائب، ومن يعتبره مجرد كاتب عادي مملوء بثقافة اليابان، ويدلقها في صفحات كثيرة جدا، أكثر من اللازم. ولا مشكلة أبدا، فالكاتب الذي يقدر نفسه ويقدر إبداعه، يستمر غير مبال بأي

ريح قد تهب هنا وهناك ضده، أو رأي محبط يفسد عليه التأمل.

أعود لمسألة القارئ المتحمس لبعض الأعمال السودانية وأقول للذين اعتبروا رأيه حكما جائرا، إن المسألة مجرد تذوق لا أقل ولا أكثر كما أوضحت قبلا، لا يمكن أن تلزم متذوقا أن يتذوق بلسان قراءتك أنت كما لا تستطيع إطعامه طعاما تحبه من دون أن يحبه هو.

لذلك عليك أن تأخذ بترشيحاته أو لا تأخذ بها، فهذا هو الأهم.

في السياق نفسه، تطل علينا بين حين وآخر مواقع تقدم أفضل مئة رواية عالمية، أو أفضل مئة رواية عربية، ويظل الناس مرتبكين من هذا الحكم الذي يأتي لهم بأعمال كلاسيكية في الغالب، متجاهلا كما هائلا من التجريب واللغة الجديدة في الرواية. وأحيانا يأتي بأعمال تجريبية، متجاهلا إرثا كلاسيكيا عظيما، وفي كلا الحالتين، لا ينبغي أن يعتبر ذلك حكما، ولا ينبغي الاهتداء به إن لم يلائم تذوقنا.

ودائما أردد أن نقل ما تكتبه المواقع غير المنهجية عن رواية ما لكاتب، وصراخه بأن روايته من ضمن أفضل مئة رواية، ليس انتصارا أبدا، لأن من وضعها هناك ووضع غيرها كان يستخدم أدوات رأيه الشخصي، لا أدوات منهجية مدروسة. أكثر من ذلك، قد تكون ثمة خدع يقوم بها البعض من أجل الترويج لمؤلفاتهم، وقد صادفتني مثل تلك الألاعيب، ولم أرض الانغماس فيها. لأنك في عمر معين، وبعد تجربة كبيرة، لن تقدم على ما يضر بهذه التجربة.

أتحدث قليلا عن فيديوهات القراء التي نراها أحيانا، وتلك القنوات التي تبث عبر يوتيوب، وأقول بكل جدية إنها أكثر تأثيرا من المدونات الجامعية، والدراسات النقدية. وهؤلاء الذين يجهدون أنفسهم في القراءة، ويشاركوننا بما قرأوه وأعجبهم، يستحقون الثناء. نحن نقرأ كثيرا ويعجبنا الكثير، لكن قد نكون من البخل أو الكسل أو الانشغال، بحيث لا نشرك غيرنا في قراءاتنا.

لذلك أكرر تقديري لصاحب فيديو الأدب السوداني، وما أثير من لغط حوله، قطعا أمر جيد. ربما لم تكن تعرف كاتبا مجيدا، وصاحب أسلوب مميز، مثل عمر فضل الله.

والآن عرفته. والقارئ الحق سيبحث عن كتابات عمر ويغوص في عوالمه الأخاذة.

الأمل دائما

منذ عدة سنوات، استوقفني في أحد الأسواق الشعبية، رجل غالبا تجاوز الثمانين، كان يمشي بوهن رفقة ابنه، وحكى لي ونحن نقف في زحام السوق، متكئين على حائط مغبر، عن رواية ابتدأ كتابتها في عام 1948، ويحكي فيها عن شخوص عايشوا الحرب العالمية الثانية، وتفرعت سيرهم بعد ذلك، وتغيرت مصائرهم، وجاءت أجيال جديدة من نسلهم، لتستلم الحكاية وتسير بها.

أعجبتني الفكرة طبعا، أن تكتب رواية أجيال تبدأ من ذلك الزمان وتصل إلى زماننا، وسألت الرجل عن مكان نشرها، وإن كان بمقدوري الحصول على نسخة منها، لكنه رد بصرامة، إن الرواية لم تنته بعد، وإنه ما زال يكتبها، وحين ينتهي منها، سأجدها مؤكدا.

كان كلاما غريبا أن تبدأ الكتابة وأنت شاب يافع، في زمن بعيد، وتستمر سنوات طويلة حتى تشيخ، ولا ينتهي العمل، وخمنت في ذهني أن الرجل لا يمكن أن يكون كتب تلك الرواية التي حكى لي قصتها، وإنما هي فكرة حلم تراوده منذ صباه، لكنه قطعا لم يكتب شيئا، وحسب خبرتي في مثل هذه الأمور، فإن كثيرين يلتقون بي، يحدثونني عن أعمال كتبوها، لكن لا يزيدون شيئا، والذي كتب بالفعل، يكون غالبا متلهفا لسماع رأي من شخص له علاقة بالكتابة، ويلح في ذلك كثيرا.

قلت للرجل: اعطني فصلا على الأقل لأرى ما كتبت.

رد بصرامة وبصوت أعلى من طاقة العمر: لم أخبرك بالأمر من أجل أن تقرأ شيئا من الرواية، أخبرتك فقط لتعلم أنني كاتب روائي، ولا شيء آخر.

انتهت قصة ذلك الشيخ الحالم، وتركته يتمشى في السوق بخطواته الواهنة، وذهبت في طريقي، ومرت حوالي سبع سنوات، لم أسمع بروايته، وظللت أبحث على الرغم من اقتناعي بأنها غير موجودة، أو غير مكتوبة، بلا جدوى.

ما أعاد تلك القصة إلى ذهني، هو قراءتي خبرا عن مسن أمريكي تجاوز المئة عام، اسمه إدغار موران، نشر رواية مؤخرا، اسمها "ألسنة فقدت ربيعها"، كان قد كتبها عام 1946، ولم يقم بنشرها في ذلك الوقت لمحتواها الحساس كما يقول، وإنها قد تؤذي آخرين كانوا يحيطون بالكاتب، أي أن الرواية هي سيرة حياة في الغالب، شملت أهل الكاتب وأصدقاءه، وربما فيها نساء عشقهن، ولم يرد أن تظهر سيرهن في رواية.

يقول الكاتب إنه ترك تلك الرواية كل تلك السنوات، وعاد ليعمل عليها من جديد، ويضيف ويحذف، بعد أن رحل كثير من شخوصها، خاصة والديه اللذين خاف من جرح إحساسهما، وكانت مثل هذه الأخلاق الكتابية في الغرب موجودة في ذلك الزمان، حيث يكاد أدب السيرة يكون ملتزما إلى حد ما، ولا يتعدى حدودا معينة، مثلما يحدث عندنا الآن، فإن الكاتب يفكر مرات عديدة قبل أن يكتب بصدق عن طفولته وحياته عموما وسط أسرة قد لا تكون مثالية، وفيها كثير من النواقص، وأي كتابة بالقطع تسيء إلى أفراد فيها.

لكن الغرب تجاوز تلك الأمور الآن، وأصبحت الكتابة حرة، وأحيانا عديمة الذوق حين تحرج أشخاصا أحياء ما يزالون، ويمكنهم أن يقرأوا ويستاءوا وحتى يسخطوا، وممكن أن يلجأوا للقضاء، إن كان ثمة كتابة عن الشرف أو الأخلاق.

أول ما لفت نظري في موضوع رواية إدغار، هو العنوان، فهو عنوان شاعري يشبه كثيرا عناوين النصوص الروائية الآن، ولا يمكن أن يخطر على بال رجل تجاوز المئة، ذلك باعتبار أن العنوان الأصلي كان مختلفا ويشبه عناوين الأربعينيات

الكلاسيكية، "ألسنة فقدت ربيعها"، عنوان جاذب فعلا، ولافت. الشيء الآخر، لماذا لم يكتب إدغار روايات أخرى طوال هذه السنوات، ما دام اهتدى إلى سكة الكتابة، روايات خيالية لا علاقة لها بوالديه أو أصدقائه، وكان الأدب في الفترة التي بدأ فيها، مزدهرا في الغرب، وكتابة الرواية، تعود بالشهرة وشيء من المال؟

لا أعرف حقيقة، ولم يذكر في الخبر، مدى ثقافة الرجل أو شغفه بأي شيء، وفقط ما ذكر عن تلك الرواية، التي عاشت حوالي ثمانين عاما، لا أدري في أي خزانة، وما هو الورق الذي صمد من دون أن يتفتت، أيضا ما هي تلك الأفكار التي حملتها، وظلت صالحة للنشر مع شيء من التعديل؟

بالنسبة لعدم وجود أعمال أخرى، هذا ممكن طبعا، وعندنا أمثلة كثيرة عن كتاب، لم يكتبوا سوى نص وحيد، نال شهرة كبيرة، ولم يكرروا التجربة لأسباب تخصهم، نتحدث دائما عن نص "موبي ديك"، أو نص لسالينجر، وآخرين، وحين نشرت روايتي الأولى الصغيرة "كرمكول" في دار الغد، التي كان يملكها الشاعر المصري الراحل كمال عبد الحليم، نشر معنا عامل في الغزل والنسيج، رواية طويلة نسيت اسمها، لكنها كانت سيرة حياة، لا أظنه كتب بعدها شيئا.

أعود الآن وأتمنى لو كان الرجل الذي التقيته، ما زال موجودا، ليمسك بالأمل الذي أمسك به إدغار موران، ويكمل، أو يكتب روايته التي لم يذكر لي اسمها، لكن أحداثها تدور في الإسكندرية في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي، ربما جلست معه، وحكيت له تجربة المسن الأمريكي، وربما خرج للناس نص مليء بالحكايات القديمة، الممتعة.

في النهاية، الكتابة شغف، هذا مؤكد، ولكن الشغف قد يكون مستمرا، كما في حالة معظم المبدعين، وقد يكون مؤقتا، يأتي مبكرا أو متأخرا، لذلك لا يمكن وضع قانون يمنع الناس من الكتابة في سن متأخرة، أو حثهم على الكتابة مبكرا، وكنت مرة تحدثت عن إمكانية إحالة الكتاب إلى التقاعد بعد سن معينة منعا للكتابة المخرفة، التي قد تأتي، لكن اتضح أن ذلك غير ممكن، هناك من يتوقف طوعا، ومن يستمر حتى الرمق الأخير.

ممالك الكتب القديمة

في سنة من السنوات، كنت أبحث عن كتاب "حرب النهر" الذي ألفه ونستون تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني القديم، عن الثورة المهدية في السودان، وكان مراسلا حربيا لصحيفة بريطانية كما أعرف. وقد كتب فيه وصفا كاملا ودقيقا للذي كان يحدث آنذاك، مع نفحات شاعرية عظيمة، وجمل رنانة تتحدث عن الموت والحياة وقوة المعتقد، لدى أتباع المهدي، بالرغم من انهزام الثورة بعد ذلك في عهد الخليفة عبد الله.

لم أكن قرأت ذلك الكتاب بعد، ولكن سمعت عنه، وقرأت عنه مراجعات قليلة، ووظف بعض كتاب الرواية في السودان، شيئا من أجوائه في أعمال لهم، كما حدثني عنه الصديق الروائي الإماراتي عبيد بوملحة، بافتتان.

كان البحث مضنيا، وقضيت إجازة كاملة، وأنا أبحث عند أصدقاء اشتهروا بغنى مكتباتهم واحتفائها بالقديم والجديد، وفي بسطات للكتب المستعملة في الخرطوم، خاصة الأماكن التي يتردد عليها المثقفون والقراء الطموحون، بلا جدوى. وفي إحدى المرات وقد أوشكت إجازتي على الانتهاء، أخبرني أحدهم بأن عليّ الذهاب إلى ناصر، إنه هناك في سوق أمدرمان، ويمكنك أن تعثر على أي ورقة كتبت وطبعت عنده، وإن لم تعثر عليه، فلا جدوى من البحث في مكان آخر.

السؤال عن ناصر في سوق أمدرمان في حد ذاته كان بلا إرشاد كبير، فالسوق القديمة المتهالكة، وسط الحفر والمياه الراكدة، غاصة بالمتاجر والنشاطات المتعددة، وفيها تنوع قد لا يوجد في أي سوق عربية أخرى. إنها سوق مثالية لشراء المنتجات المحلية من ثمار الأشجار الخشنة كالدوم والتبلدي والقضيم، والطواقي الملونة المنسوجة يدويا، والأحذية المفصلة من جلود الحيوانات والزواحف المختلفة، وفيها صياغ، وباعة إلكترونيات، وباعة أقمشة لكل المناسبات، وباعة جلابيب بلدية، وفيها صيدليات معروفة بقدمها في مجال بيع الدواء، وغالبا تجد فيها علاجات تكون دخت من أجل العثور عليها.

كل ذلك كان موجودا وبكثرة، لكن لا أحد يعرف ناصر بائع الكتب القديمة، وذلك لسبب بسيط جدا، أن تجارة الكتب سواء أن كانت قديمة أو جديدة، غير مهمة، ولا تأتي بربح طيب، والناس الهائمون في السوق بتلك الأعداد الكبيرة، قد لا يكونوا سمعوا بأبي الطيب المتنبي أو طه حسين أو أبي تمام حتى.

كان محل ناصر عبارة عن كشك ليس كبيرا وليس صغيرا أيضا، في مكان ما وسط السوق، وبجانبه عدد من الأكشاك الأخرى التي تبيع السجائر، والبسكويت، والعطور المستهلكة. وكان ناصر موجودا، في المكان، ليس لديه أحد، ويحمل منفضة من الريش، يعارك بها الغبار المتراكم على الكتب. إنه في منتصف العمر، ملامحه جادة بعض الشيء، ولا يبدو بائعا للكتب القديمة، كان أقرب إلى رجال الشرطة أو الجيش، كما بدا لي. حييته باحترام يليق برجل يوفر المواد النادرة، كما أخبرني صديقي، ورد باحترام أكثر. سألته عن تجارته، وهل هي تجارة جيدة وسط ذلك الطوفان من السلع الاستهلاكية، قال: طبعا، هناك كتب نادرة يبحث عنها الناس ويدفعون فيها الكثير.

كنت أحدثه، وعيناي تتجولان في رفوفه التي خلت من الغبار، وتنزحان إلى الأركان البعيدة، التي ما زالت مغبرة، بحثا عن كتابي الذي جئت من أجله. لم أكن أريد أن أبدو باحثا عن كتاب نادر، حتى لا يبالغ الرجل في سعره، وأردت أن يكون الأمر مصادفة أنني مررت بمحله أثناء تجوالي في السوق. لكن النظرات الفاحصة، لواحد اعتاد ملاقاة الغرباء الباحثين عن الغرابة، التقطتني. لقد فاجأني حقيقة، حين دس يده في أحد الرفوف، وأخرج نسخة غلافها ممزق من رواية "أرض السودان – الحلو والمر" التي كتبتها، منذ سنوات عن شاب إنكليزي قام برحلة استكشافية للسودان. قال وقد تبدلت جديته إلى ابتسامة: اكتب لي إهداء عليها، لو سمحت، وسأخفض لك من سعر كتاب "حرب النهر" الذي جئت تبحث عنه، ولدي كتب كثيرة، قطعا تريدها.

نعم الكتب القديمة ممالك كما بدا لي الأمر في تلك اللحظة، ممالك لها حراسها وملوكها، ولها أعين تتلصص لتحميها، كان الرجل يعرفني، ويعرف أنني أبحث عنه، وأنني سآتي إليه، فجهز روايتي كفخ مبهج لي، ومدّ يده الأخرى، أحضر لي من تحت الكتب، ما جئت أبحث عنه.

ما حيرني أنني لم أهتد إليه بسهولة، ولم يعرفه كثيرون سألتهم، والرجل الذي أرشدني إليه، قال إنه يجهل مكانه، ولا يعرف رقم هاتفه، وبالرغم من ذلك كان الرجل في انتظاري.

أخذت الكتاب، وكتبا أخرى في التاريخ السوداني أحتاجها في عملي الكتابي، وفيها الكثير من المتعة، وتوفير خامات الكتابة كما أسميها، من بينها كتاب "حياتي" في جزئين للراحل بابكر بدري، رائد تعليم البنات، وكان سيرة ذاتية جريئة، لم أتوقع ما قرأته فيها من ذكريات لا تروى في السير العربية أبدا. وأيضا كتاب "تاريخ السودان" الضخم لسلاطين باشا، وكنوز أخرى بديعة، وخرجت من عنده مزهوا بما غنمته، ولم ألتفت لما دفعته في تلك الكنوز.

الآن وقد اندلعت في بلادنا حرب عبثية غبية، غير منصفة، وضاعت سوق أمدرمان مع القيم والمفاهيم الكثيرة، والعلامات المبجلة التي ضاعت، قطعا لم يتسن لواحد مثل ناصر وقت لينقذ كنوزه من الاحتراق بتلك النيران الغادرة. أعتقد أن كشكه بلا وجود الآن، وكل أكشاك البيع الأخرى غير موجودة، والبلاد كلها في قبضة اللاوجود، ما لم تحدث معجزة، ويعود شيء ما.

سرقات أدبية

هذه الأيام، يكثر الحديث بشدة عن موضوع السرقات الأدبية، بعد أن تم اكتشاف سرقات عديدة لكتب ومقالات وقصائد، ونشرها على أنها نتاج للشخص الذي قام بسرقته، بعض هذه السرقات شديدة الوطأة، حيث تم نقل المادة كما هي في الأصل، أي نشر النص الأصلي من دون أي إضافة أو حذف، وبعضها فيه بعض الذوق، حيث يضيف الشخص الذي استلف المادة وأضاف اسمه إليها، بعض الأشياء، أو يحذف أشياء أو يستبدلها بجمل مختلفة، وبذلك يضيف لسرقة النص، بصمة لكن مهتزة، لا تصمد أمام من اعتادوا على متابعة النصوص، وتحليلها، ونسبها إلى مبدعيها الأصليين.

ولأن السوشيال ميديا، باتت مرآة عاكسة لأي نشاط، سواء أن كان مستقيما أو مختلا، فإن ظهور هذه السرقات، يحدث ضجيجا عاليا، يشارك في إشعاله مهتمون، وغير مهتمين على حد سواء.

السرقات الأدبية بكل تأكيد، ليست بدعة في هذا الزمن الذي كثرت فيه البدع، ولكنها كما أرى تقليدا راسخا، يلازم الكتابة الإبداعية منذ وجدت، وحتى في أيام الشعراء والكتاب التاريخيين، حيث يوجد دائما موهوبون، يستطيعون الكتابة في أي شيء، وغير موهوبين يتمنون لو كتبوا شيئا، أو يتحرقون شوقا للكتابة ولا يقدرون، ولذلك يحومون حول الإبداع والمبدعين، يسرقون ما يستطيعون سرقته، ويتباهون بما اقترفوا، إلى أن تأتي لحظة انكشافهم ويختفون تماما بعد ذلك.

أذكر أيام كنت أكتب الشعر العامي أو الغنائي، وأنا طالب في المدرسة الثانوية، أن تعرفت إلى شاعر جميل جدا، كانت قصيدته مليئة بالصور التي تمثل الزهور والغيم الماطر، والعطور، والعيون السود، وأفراح الحبيبة وأحزانها، وكثيرا من المفردات الاجتماعية التي كنا نراها ونسمعها، ونتجول فيها ولم يخطر ببالنا أن نكتبها. كنا نجلس ساعات طويلة إلى ذلك الشاعر، نستمع إلى قصائده، التي يبدو أنها لا تنتهي، ونتساءل دائما، لماذا هو محلي في مدينة إقليمية، ولم ينطلق إلى العاصمة، حيث يتغنى بإبداعه مغنون أكثر شهرة ولمعانا؟ كنا نسأله في ذلك، فيجيب بأنه شاعر يحب مدينته، وأبناء مدينته، وفناني مدينته، ولن ينزح بشعره بعيدا. أيضا تلك القصائد الجميلة، أغرت بعضنا، نحن الشعراء المبتدئين الذين يكتبون تجارب ساذجة وبسيطة، بالبحث عن تلك الملهمة التي تمنح الشاعر كل ذلك البهاء الكتابي، وجرهم البحث إلى اكتشاف حقيقة كانت صادمة، فالشاعر العظيم لم يكن شاعرا على الإطلاق، كان يملك جرأة، وكراسة مليئة بالقصائد، التي جمعها من نتاج غيره من الشعراء، وقدمها باسمه، وحين قدم أحد فناني المدينة مرة قصائده في حفل في العاصمة، اكتشف أنه يغني أشعارا مغناة بالفعل، لفنانين مغمورين، كتبها شعراء آخرون، موجودون ويكتبون بكل جمال. الذي حدث أن الشاعر اختفى بعد ذلك، لم يعد موجودا في محيط الفن، يقرأ قصائده بصوته القوي المتمايل، ولا في الندوات الشعرية التي كنا نقيمها من حين لآخر، وسمعنا أنه ترك المدينة، وذهب لمكان آخر لا أدري ليبدأ من جديد أكذوبة الشعر، أم انزواء من فضيحة سرقاته؟ وبعد سنوات طويلة من ذلك، صادفته في المستشفى، كنت أعمل في قسم الطوارئ، وجاء على مقعد متحرك، كان قد شاخ، تساقط شعره، وابيضت لحيته، وأخبرني أنه أصبح جدا لأطفال يشبهون القصائد، ويشكلون عالمه الآن.. سألته:

تلك القصائد التي كنت تكتبها؟

قال بضعف شديد:

كنت أستعيرها لأنشر الجمال فقط. لا تلمني على ذلك.

في تلك الفترة أيضا، كان يوجد شاب، لديه إعاقة بسيطة في الحركة والكلام، كان يأتي إلى مواقع الكتابة والفن باستمرار، يحوم حول الشعر والشعراء، ويطرب بشدة حين يسمع شعرا جميلا مليئا بالصور الغريبة، لم يكن أحد يعرفه جيدا، وقيل هو

شاعر خجول ليس إلا. هذا الشاب طلب مني مرة أن أكتب له إحدى قصائدي التي ألقيتها في ندوة شعرية، في دفتر كان يحمله باستمرار، كتذكار مني، وكتبتها له بالفعل لأفاجأ بعد عدة أشهر أن قصيدتي تلك، تغنى في الحفلات والمهرجانات وتقدم باسم ذلك الشاب، لكني لم أقل شيئا، اعتبرته نجاحا للقصيدة، وانتهى الأمر، كنت ألتقي الشاب من حين لآخر، لقاء عاديا بلا أي حرج منه، ولا غيظ مني.

كذلك يتحدثون كثيرا حتى في الغرب، عن سرقة نصوص روائية، سرقتها إما كأفكار أو مقاطع من الروايات، وأحيانا روايات كاملة، ويمكن كذلك سرقة مقال أدبي ممتاز، أو دراسة جامعية، أو تحويل فيلم سينمائي يشاهده شخص ما، إلى رواية لا يبدعها قطعا، وإنما مجرد تحويل للفيلم إلى تلك الرواية، وإذا كان الكاتب عربيا ويقرأ بلغة أخرى، قد يأتي بالدرر الغربية مترجمة إلى العربية، ومنسوبة إلى اسمه.

أنا أتساءل دائما في هذا الموضوع عن فائدة السرقة الأدبية، وكما يقولون: إن سرقت أسرق جمل، فأين الجمل في الكتابة الإبداعية أو الأدب عموما خاصة في هذا العصر؟

تحدثت كثيرا وتحدث غيري عن عدم الفائدة من الكتابة، إنها في الغالب محنة، يلتزم بها من ابتلي، ولكن لماذا من لم يبتل، يبحث عن ابتلاء زائف، يضع فيه اسمه؟

لا أعتقد من أجل الشهرة، فالشهرة نفسها لم تعد متوفرة كثيرا، مع ازدحام الأجواء بالكتاب والشعراء، والنقاد والمحاضرين، ولا من أجل المال، لأن لا مال سيأتي، ولا من أجل الجوائز أيضا، لأن الجوائز محدودة جدا، وحتى لو استجابت، لن تذهب لنص مسروق بكل تأكيد، هناك دائما من يقرأ النصوص جيدا، ويقارنها بنصوص أخرى مشابهة.

جائزة القلم الذهبي

منذ فترة قليلة، أعلن تركي آل الشيخ، رئيس هيئة الترفيه في المملكة العربية السعودية، عن جائزة كبرى للرواية، أسماها جائزة القلم الذهبي، وتمنح لعدة فروع في الرواية منها الرواية التاريخية ورواية الفنتازيا. وعين لها مجلسا استشاريا ضم أسماء يمكن الاعتماد عليها في نشاطات عدة، منها بالطبع مسألة الكتابة الروائية، ومسألة السيناريو، لأن الروايات الفائزة ستحول إلى أعمال سينمائية.

الأمر بدا مفاجئا للبعض، لأن تركي كان مهتما بالفن، وأنتج فيه كثيرا، واستضافت المملكة مهرجانات فنية وغنائية متعددة، وكلها بعيدة عن أدب الرواية الذي ينتج عادة في صمت، وتقام له ندوات ومؤتمرات هنا وهناك، وأيضا أنشئت له جوائز في الآونة الأخيرة. وبات إنتاج الرواية في الوطن العربي، بسبب تلك الجوائز، والحلم بها لدى الكتاب القدامى والجدد على حد سواء، أكثر أنواع الكتابة الإبداعية انتشارا، وصار من الطبيعي جدا، أن تجد في الأسرة الواحدة روائيين عدة، ويمكن أن تكون روائيا، ويكون أبوك أيضا روائيا، وأعرف أسرة فيها ولد في المرحلة الإعدادية يكتب رواية.

وفي الورش التي أعقدها من حين لآخر، للحديث عن أبجديات الكتابة الروائية، أفاجأ بأجداد في السبعين، وأيضا أطفال مراهقين، يأتون ممتلئين بالأمل في العثور على مداخل يسلكونها لكتابة الرواية.

كل هذا ليس سيئا بالتأكيد، والكتابة بالرغم من الأضرار التي قد تلحق بها بسبب الخطوات الكثيرة التي تسير فيها، ليست حكرا على موهوبين فقط، هناك أشخاص غير موهوبين، يستطيعون إنجاز شيء أيضا، لو امتلكوا شغفا مناسبا يمكن استخدامه.

إذن لن نلوم الجوائز برغم ما قد تكون سببته من زحام وترهل، وشخصيا اعتدت الترحيب بأي جائزة جديدة في الأدب، سواء إن كان رواية أو شعرا أو قصة قصيرة. وأذكر أنني رحبت بجائزة كتارا حين انطلقت عام 2015 وأصبحت الآن جائزة راسخة، وأيضا رحبت بجائزة غسان كنفاني في فلسطين، وشاركت في التحكيم في الدورة الأولى، وكان مفاجئا لي أن أسماء مكرسة، قدمت فيها. وأظنها الجائزة الوحيدة التي لم تتعرض لهجوم من هنا وهناك، كما يحدث كلما ظهرت جائزة جديدة، ذلك أن وجودها ارتبط بقضية تهمنا كلنا، وبكاتب لا يختلف عليه إثنان من ناحية جودة ما قدمه في حياته القصيرة، والخلود الذي لازم سيرته، ولا أظنه لازم سيرة كاتب روائي آخر في المنطقة، مع وجود أدباء فلسطينيين كبار مثل إميل حبيبي.

أيضا جائزة البوكر، أو الجائزة العالمية للرواية العربية، لم تسلم من الكلام الكثير، والثرثرة حول أصلها وفصلها وجديتها، وتجد رغم ذلك في كل عام، مئات يقدمون لها من أجل الشهرة وما تقدمه من جوائز مالية أعتقد قد تنفع في شيء في هذه الأيام الصعبة، إن فاز بها أحد، أو حتى وصل إلى قوائمها القصيرة.

هناك جوائز محلية في بلاد كثيرة، وهذه أيضا يطرقها أهل البلاد الذين تهمهم حتى لو كانوا ينتقدونها، وذلك للسبب نفسه الذي ذكرته من الحاجة للمال، وسكة الإبداع عموما كما ذكرت عشرات المرات، ليست سكة ربح بأي حال من الأحوال، والجوائز إن حدث وحصل عليها أحد، ترفع المعنويات كثيرا، وتسد بعض الحاجات.

جائزة القلم الذهبي، هوجمت من أول إعلان لها، وبعد تكوين لجنتها الاستشارية، وكتب كثيرون مستهزئين بها، واعتبروها جائزة مالية فقط لا غير، سيحصل عليها البعض هكذا بلا إنتاج.

طبعا هذا شيء يدعو للأسف، فبدلا من الترحيب بجائزة كبرى مثل هذه، يتم الكتابة ضدها منذ البداية، ولا أدري ما سبب مهاجمة كل فعل حيوي جديد، في المجالات الإبداعية؟ لكن هذه عادة لدى البعض كما يبدو، والأسلم أن نفرح

بجوائز الأدب الكبرى، وندعمها في زمن كما قلت لا يهتم أحد بالأدب كثيرا، ولا يستطيع المبدع أن يعيش مبدعا فقط، من دون وظيفة يقتات منها.

وأذكر في بداياتي أن عاصرت أشخاصا من جيلي، كنا نجلس في المقاهي في وسط القاهرة، كنت طالبا في نهاية دراستي، وكانوا لا يعملون ويجدون في العمل عيبا كبيرا، ودائما ما أسمع أن المبدع ليس موظفا عند أحد ولا ينبغي أن يكون موظفا، يرأسه موظف. هذا تضخيم للفعل الإبداعي، فلا شيء يستطيع إعالة الإبداع مثل الوظيفة الثابتة التي ينبغي أن يحصل عليها المبدع، وإن تفرغ للكتابة، فلا بد من دخل ما، يسند هذا التفرغ.

أعود لجائزة القلم الذهبي، إنها جائزة حقيقية، ومتنوعة، لم تقل للرواية فقط، ولكن فصلت أنواع الروايات حتى، وبات من الممكن للكتاب الذين يبدعون في مجالات الرواية المختلفة أن يشاركوا في التقديم لها. ولا بد أن يفوز البعض طبعا، ويخسر البعض، كما هي عادة المسابقات، ولا بأس من المثابرة للذين يكتبون بجديدة واجتهاد.

الشيء الذي أريد ذكره هنا، إن كثيرا من مهاجمي الجائزة، خاصة لو كانوا كتاب رواية، لن يجلسوا مكتوفي الأيدي، أو معصوبي العيون ليطالعوا نتائجها، معظم الناس سيقدمون فيها، هذا أكيد، ولعلي أستعيد تجربة كتارا التي هاجمها البعض بشراسة حين ظهرت، ثم قدموا رواياتهم لها وبعضهم فاز.

لا نمل من استقبال الجوائز بالترحاب، إنها التعويض الأمثل للكتابة المستمرة الجادة بلا حافز طوال العمر، في حالة أن فاز بها أحد ما.

أماكن الكتابة وحكاياتها

دائما ما نسمع أو نقرأ عن أماكن معينة يتخذها الكتاب والشعراء، وكل من يعمل في مجال الكتابة الإبداعية، محطات دائمة للكتابة فيها، حيث يذهب إليها المبدع كلما أحس بالرغبة في الكتابة، أو ربما يزورها يوميا إن كان بلا وظيفة ثابتة، ويملك وقته ولديه ما يود قوله، كما هو الحال في أوروبا وأمريكا، وفي البلاد العربية لفئة قليلة، تحررت من الوظائف التقليدية، واكتفت بالقليل الذي تأتي به الكتابة، والوظيفة نفسها بالطبع لا تمنح في الغالب حياة مريحة خالية من تجاعيد الفقر، لكنها على الأقل ثابتة، ولا تتغير بتغير الظروف، إن اعتمد المبدع على إبداعه.

وفي السنوات الماضية مثلا، كنت أكتب في منابر عديدة، وكان الأمر صعبا، لكنه محتمل، ثم تقلصت تلك المنابر إما برغبة مني أو من الذين يملكون تلك المنابر، ويسعون إلى تغيير منابعها ومصباتها من حين لآخر.

بالنسبة لموضوع الأماكن التي يتم اختيارها للكتابة، لا أعتقد أنها تملك مواصفات معينة، تشد إليها المبدع، بمعنى ليست كالبيوت السكنية، التي ينشد فيها الساكن هدوءا وراحة معينة، وإنما هي مجرد أماكن، يتم اختيارها عشوائيا، وقد تتطور علاقة المبدع بها، وتصبح سكنا دائما لكتابته، وقد تنتهي سريعا، ويبحث المبدع عن مأوى آخر، ومسألة أن يذكر في سيرة كاتب ما، إنه يسافر من بلاده في أوروبا إلى افريقيا للإقامة والكتابة هناك، ولا يعود إلا بعد أن ينتهي كتابه، ليست مسألة حاسمة في جذب الإبداع، فافريقيا ليست بلادا مستقرة في الغالب، ولا أعتقد أن فيها إيحاءات قوية، تتفوق على الإيحاءات الغربية، إنما هي مصادفة أن كاتبا ما، زار بلدا افريقيا مرة بغرض السياحة والاستكشاف، وقرر في ما بعد أن يجعل ذلك البلد مأوى موسميا لإبداعه.

كذلك المقاهي، وهي أكثر الأماكن احتمالا لنزوات الكتابة، ودائما ما تجد مبدعين، يختارون طاولات معينة في مقاهي معروفة أو مغمورة، في بلادهم. ويجلسون بالساعات، لا يهم الضجيج والثرثرة، وصياحات لاعبي النرد، الذين يجلسون هناك بأريحية تامة، ولا يعتقدون أن هناك من يحتلب الأفكار من عقله، ويسلسل الوقائع ويبني شخصيات داخل نص روائي.

وفي هذا السياق قد يتعرف أحد رواد المقهى على الكاتب، ويقطع عليه خلوته بالجلوس إلى طاولته، وقد يشتت ذهنه بالحديث عن أعمال له، لم يقرأها أصلا، وطبعا سيطالبه بابتسامة عريضة لتظهر في صفحة ما، على وسائل التواصل الاجتماعي، أو يذهب تاركا ثمن قهوته معلقا في رقبة الكاتب. الشخص المتطفل هنا لا يعرف أهمية أن تكتب، وأهمية أن تمتلك خصوصية تكتب فيها، هو يتبع قانون المقهى الذي لا يعرف مثل تلك الخصوصية، ويحاول البعض من عشق غير معروف الأسباب، جعله مكانا ذا خصوصية.

قبل سنوات طويلة، وبمصادفة بحتة، اتخذت موقعا كهذا، في الدوحة حيث أقيم، مكانا في بهو فندق متوسط، فيه قهوة وإنترنت ولا خصوصية على الإطلاق، كنت أحضر مؤتمرا علميا فيه مرة، ثم علق في ذهني، ولا أعرف حتى الآن لماذا؟ فلو قيم كمتكئ للإلهام، وملاذ للعزلة لما حاز أي تقييم، هناك رواد دائمون ومسافرون عابرون، وندل يروحون ويجيئون، وواحدة شقراء من يوغسلافيا السابقة، تعزف على البيانو يوميا، في ساعات جلوسي للكتابة، وموسيقي شاب يعزف الناي بألحان عذبة، يأتي أيضا، ثمة حالمون بالثراء ليجلسوا مترقبين صفقات قد يعقدونها مع تجار قادمين من بعيد، وفي الغالب تبرد القهوة في أكوابهم ولا يحصدون شيئا.

أنا أجلس، وأنعزل ذهنيا عما حولي، أرد السلام إن سلم عليّ أحد، وأحس بالضيق فعلا إن جلس معي أحد أعرفه أو لا أعرفه، وأنا في قمة الكتابة، وكنت مرة أكتب شيئا عن بطلتي الفرنسية: كاتيا كادويلي، في رواية لي اسمها "العطر الفرنسي" أظنه شيئا متخيلا عن ماضيها في فرنسا قبل أن أجرها إلى حي غائب الشعبي الهامشي، في الرواية، حين جاء عازف الناي الذي لا أعرفه ولا يعرفني، جلس بلا دعوة، وصاح بالنادل أن يأتي بقهوته هنا على هذه الطاولة، قال:

أريدك أن تسمع هذا اللحن لفيروز.

وقبل أن أرد أو أحصل على فرصة، لإنهاء ما أردت كتابته عن الفرنسية، أخرج العازف نايه من علبته الخاصة، وأسمعني لحنا لفيروز لا أذكره الآن. لا أنكر أنني طربت فعلا، وتمنيت أن يستمر في العزف بلا توقف، بالمقابل ضاع المقطع الذي كنت أكتبه، ولم يأت مرة أخرى، لكن الرجل أنهى معزوفته، وحمل نايه وقهوته إلى الطاولة البعيدة التي اعتاد الجلوس عليها وحده، فلم أشاهد أحدا يجلس معه أبدا، طوال عدة سنوات، كما أنني لا أعرف اسمه، ولست واثقا إن كان يعرف اسمي أم لا؟ كان يأتي ليجلس معي في أوقات كثيرة، يعزف ألحانه ويمضي، ولم يسألني أبدا عن صنعتي، وماذا أفعل بذلك الكومبيوتر المفتوح دائما. عازف الناي هذا، اختفى، ربما استغرق الأمر عامين حتى تجرأت على السؤال عنه، والحقيقة كان السؤال صعبا، لأنه لا اسم للرجل لديّ، ولا أعرف إن كان معروفا أم مجرد شاب موهوب، بلا مستقبل حقيقي، يتنفس بالعزف للغرباء، لكن عاملا آسيويا في الفندق كان يعرف شيئا، أخبرني بأن الرجل توفي في مصح عقلي في بلد سافر للعلاج فيه.

إنها لغة الأماكن الضاجة، الأماكن التي نختارها لنحاول الكتابة فيها، بلا أي جذب كما قلت، ونلتقي فيها بالكتابة فعلا، رغم عدم الخصوصية، ونلتقي أيضا بأشخاص لن يكونوا محورا في حياتنا، لكن مجرد أشخاص يظهرون ويختفون. وهذا ما حدث لعازف الناي، وللفتاة اليوغسلافية التي اختفت أيضا، ولواحد من الذين يجلسون بلا هدف واضح، واتضح في ما بعد أنه محتال يتصيد الفرائس، والغريب أنه لم يصطد فريسة أبدا أثناء رؤيتي له في الركن. فقط أراد التعرف إليّ، ولم أمنحه فرصة ليحولني إلى ضحية.

اكتشاف القدرات

في سؤال لي، في رسالة تلقيتها مؤخرا، من ضمن رسائل اعتدت تلقيها دائما، ويرسلها مهتمون بالكتابة، أو ناقمون عليها، سألني أحدهم:

متى يكتشف الإنسان أنه مبدع؟

متى يعرف أنه شاعر أو كاتب؟ خاصة أن الإبداع الكتابي يختلف عن باقي الإبداعات، فالممثل يقلد الآخرين تلقائيا، وينتبه إليه من يخبره أنه ممثل جيد، والرسام يخط على الأرض أو الحوائط أو الدفاتر المدرسية، رسومات من دون أي مقدمات، وينبهه جالسوه أو زملاؤه إلى موهبته، والمغني يدندن، ويكتشف الآخرون جمال صوته.

لكن كيف يعرف الشاعر أنه بصدد كتابة قصيدة، أو الروائي أنه يستطيع كتابة رواية؟

في الواقع لا يوجد أي فرق بين تلك المواهب التي ذكرها صاحب الرسالة، وبين الكتابة، فالشخص الموهوب يؤلف القصص منذ الصغر، وهو في الغالب يقرأ كثيرا، ويحب القراءة جدا، وقد يبدأ بتقليد ما يقرأه، ويستمر من دون وعي في التقليد، إلى أن يصل إلى نضج ما، ليس بالطبع نضجا واعيا ولكن مجرد صوت صغير، يبدأ في السطوع وسط كتابته المقلدة، ومن ثم يتبعه إلى أن يصل إلى نهاية حتمية، وهي أنه شاعر أو كاتب قصصي.

وبحسب تجارب كثيرة، أو شهادات لمبدعين من شتى بقاع العالم، فإن الموهبة تكتشف مبكرا، وبمجرد أن يعي الإنسان ما حوله، فتكون الخطوة الأولى أن يسعى لتميز ما، لا يعرفه في الأول، ثم يتعرف إليه بعد ذلك، ويصادقه، ويدمنه، وفي أحيان قليلة، لا يهتم به، ويفلت الموهبة من بين يديه، باحثا عن تميز حياتي آخر. حين كنا في المدرسة الابتدائية في مدينة بورتسودان، وكنت في ذلك الوقت أقرأ ما تسمح به سني، وما أختلسه من مكتبة والدي من الكتب التراثية، وأتعرف إلى مشروع كتابتي المستقبلية ببطء، كان معنا ولد بدا لنا موهوبا، عبر إلى آفاق بعيدة. كان لديه دفتر ضخم، يدون عليه خواطر شعرية ونثرية، ويتعمد في أحيان كثيرة أن يكتب أمامنا، ويسمعنا ما كتبه، ولا أدري هل كان جيدا فعلا أم مجرد خواطر ولد ابتدائي تأتي إلى ذهنه الصغير؟

الذين آمنوا بموهبته، حفزوه على استشارة معلم اللغة العربية، وكان المعلمون وربما ما يزالوا، ولكن في نطاق ضيق، هم القراء الأوائل لكل نزق يأتي من التلاميذ، يقرأون الغث والسمين، والذي ليس أي شيء، ويدلون برأيهم الذي سيأخذه التلميذ في الاعتبار ويكبر به، إن كان إيجابيا، ويلقي به في سلة النسيان، أو ينهيه عن الكتابة، إن كان سلبيا، مع اعتبار أن معلم اللغة العربية ضليع في الأدب. وهذا غير صحيح بالطبع، فمهنة التعليم هي مجرد مهنة لها قواعد يدركها المعلم، ويسعى ليدركها التلاميذ، وليس معنى أن هناك من علمك الفرق بين الفاعل والمفعول به، والجملة الإسمية والجملة الفعلية، ومتى ترفع ومتى تنصب، يستطيع أيضا أن يكوّن رأيا نقديا عن الكتابة.

وخلال تجربتي الطويلة، في التفاعل مع الآخرين، صادفت عشرات من معلمي اللغة العربية، حاولوا ممارسة النقد الأدبي، ولم ينجحوا، وكانت كتاباتهم مثل كتابة أي قارئ عادي.

أعود للولد الابتدائي، صاحب ما ظنناه موهبة، قلت بعضنا شجعه على مراجعة معلم اللغة العربية، وبعضنا زجره واستهزأ به، ولكن رغم ذلك حفظ بعض خواطره، التي تدعم نزق المراهقة.

الولد عرض دفتره على المعلم الذي كان جامدا وصعب المراس، ولم يره أحد يبتسم أبدا، هو مهتم بإلقاء درسه اليومي، فهم التلاميذ أو لم يفهموا، ينتهي الأمر عند ذلك الحد. لقد ذهب إليه زميلنا متعثرا، وذهبت معه باعتباري من المساندين

لموهبته، وفوجئنا أن المعلم، ابتسم لأول مرة، حين قرأ قصيدة عشوائية من منتصف الدفتر، أذكر أن اسمها حمار، وكتب الولد: هذه عن حمار جارنا، الذي يعمل في توزيع اللبن. ابتسم المعلم، ثم قال موجها كلامه للتلميذ الذي يظن نفسه شاعرا، وكاتبا: أنصحك بالالتفات لدروسك، هذا كلام فارغ.

أظن كانت تلك اللحظة هي آخر لحظات التلميذ بالإبداع، فقد مزق دفتره، وبات انطوائيا، قليل الكلام، وأيضا كثير الغياب من الحصص التعليمية، وفي النهاية، بات جليا أنه أصيب بمرض نفسي، اختفى بعده، ولا أعرف عنه شيئا حتى الآن.

أردت أن أوضح بغض النظر، إن كان زميلنا ذلك موهوبا أم لا، وكنت في ذلك الوقت أعتقد جازما في موهبته، إلا أن المسار كان يمكن أن يكون مختلفا لو تم تشجيعه، بدلا من قهره. لقد كان في حالة اكتشاف لقدرات، هي محددة بالتأكيد بحسب عمره، ولتنمية تلك القدرات، لا بد من ماء عذب يروي، وهذا ما لم يجده، ومن ثم اختل المسار، ومرض، وتاه. أنا عكس ذلك الولد، فقد اكتشفت كتابة الشعر، ونظمت قصيدتي الأولى وأنا أقود دراجتي، عائدا من المدرسة، في مدينة الأبيض، غرب السودان حيث كنا نقيم آنذاك. اكتشفت قصيدتي فجأة، رددتها مرارا حتى لا أنسى، وأسرعت حتى وصلت البيت، ودونتها في كراسة من كراساتي المدرسية، ثم أعطيتها لمن يطبعها لي بالآلة الكاتبة، ووزعت نسخا كربونية على زملائي.ولم ألجأ لمعلم اللغة العربية، خوفا من تجربة زميلي، في المدرسة الابتدائية، والذي حدث أن القصيدة انتشرت، وجاء أحد المغنين يبحث عني، وفوجئ بأنني ولد صغير، لكن غنى القصيدة، وتشجعت لكتابة غيرها وغيرها، ثم تشعبت الأمور بعد ذلك.

الآن أمر اكتشاف الكتابة أسهل، في الواقع أصبح قصديا في معظم الحالات، هناك من يريد أن يكتب رواية، وسيسعى لكتابتها ونشرها، امتلك موهبة أم لم يمتلك، ولا وجود لمعلم اللغة العربية في الأمر. فهو قرار فردي سينفذ، حتى الشعر، وأعني قصيدة النثر، سيكتبها من يريد بتجميع ما يحلو له من المفردات، غير عابئ بما قد تحمله من معنى أم

لا؟

نافذتنا

أذكر منذ سنوات طويلة، وأيام بداياتي في الكتابة، أن حضرت محاضرة للكاتب الراحل جمال الغيطاني، كانت من ضمن فعاليات معرض الكتاب في الدوحة، الذي كان أيضا في بداياته تلك الأيام. وكان جمال آنذاك مهتما بالترجمة، وإنشاء علاقة بين الأدب العربي، والآداب الغربية، وكان يسافر كثيرا، ويتحدث في ذلك الشأن.

كان عنوان المحاضرة: الأدب العربي نافذتنا على العالم، تحدث فيها عن إمكانية أن يكون الأدب العربي، رسول محبة وسلام لنا، بعيدا عن السياسة والاختلافات الفكرية والعقائدية التي تفرق بين الشعوب، أكثر مما تجمع بينها، وفي سبيل تحقيق ذلك الطموح، لا بد من دعم الترجمة، وإتاحة الفرصة للأدب العربي أن يتهادى خارجيا بلغات شتى، عسى أن يعثر على دربه، ويحقق الغاية من انتشاره.

كان كلاما طيبا، وحقيقة كانت الترجمة آنذاك ما تزال شحيحة، وعدد قليل من النصوص العربية، يترجم للإنكليزية والفرنسية، وربما الإيطالية، والإسبانية، وكانت لغة مثل المقدونية أو البولندية، مغلقة تقريبا، لم تطرقها سوى ثلاثة أو أربعة نصوص، وشعوب تلك البلاد، لا تعرف أصلا من هم العرب، ناهيك عن أدبهم.

كان ثمة مستشرقون مهتمون بالعرب وتراث العرب، وترجم عدد منهم إضافة لمعاني القرآن الكريم، عددا من النصوص التراثية، مثل أشعار المتنبي والبحتري، وأبي تمام، وبدا الاقتراب من الأدب الحداثي مثل الرواية والشعر الحديث، ضربا من المغامرة.

على العكس من ذلك، كانت النصوص الغربية، تترجم بشراسة إلى اللغة العربية، وبعضها يتم دعمه من مؤسسات كبرى، ودول، ونشأت بالفعل أقسام للترجمة في وزارات الثقافة لعدد من الدول، ونتيجة لذلك بتنا نعرف الأدب الغربي واللاتيني، والفارسي، والهندي، معرفة جيدة، وأيضا يتأثر بعضنا بتلك الآداب، أو يحاول الكتابة مثلها. وأعتقد أن هذا الموضوع، أي دعم ترجمة الآداب الأجنبية، ما زال قائما، وحتى القراء في الوطن العربي، تجدهم يركضون خلف الروايات والقصص المترجمة، بينما أعينهم مغمضة عن روايات عربية مهمة، قد تكون أفضل كثيرا من الروايات الأجنبية. كان الغيطاني بلا شك، يحاول أن يقول إننا شبعنا من قراءة الآخر، ولا بد للآخر من قراءتنا، وهذا بالضبط ما نتحدث فيه كلنا، وما نريد قوله كلنا.

بعدد سنوات من تلك المحاضرة، أظن ثمة تقدم ما حدث، أي أن النافذة، التي من المفترض أن تفتح، قد انفتح جزء منها، وبات من المفرح، أن تجد عددا لا بأس به من الروايات والدواوين الشعرية، معروضا في منصات الغرب ومكتباته، جنبا إلى جنب مع آداب ما كنا نحلم بمجاورتها، وذهب كتاب مثل نجيب محفوظ، والطيب صالح، وتوفيق الحكيم، وشعراء مثل محمود درويش وأدونيس، إلى أبعد من ذلك، حيث باتت آدابهم مراجع مهمة، ومواد للدراسات الأدبية في الغرب، وحتى في الأجيال التي أتت بعد ذلك، بات من الممكن تحقيق انتشار لا بأس به، كما فعلت روايات علاء الأسواني، وأعمال لكتاب شباب مثل أحمد سعداوي، وشهد الراوي.

إذن أصبحت النافذة شبه مشرعة، وقطعا ستنفتح كاملة يوما ما، خاصة أن كثيرا من المستشرقين الجدد الآن، يتنقلون في المدن العربية، يستنشقون عادات الشعوب، ولغاتها المحلية، ويحاولون أن يدركوا ما لم تقله الروايات، ثم يسعون للترجمة بعد ذلك، وأذكر أن المترجم البلجيكي اكزافيه لوفان، الذي يترجم بنزاهة وجمال، الأدب السوداني وغيره إلى الفرنسية، قد زار السودان مرة، وتعرف إلى مقرن النيلين، وسوق الناقة، وكافتيريا الأسكلة، وبائعات الشاي في الشوارع المتربة، وصادق كثيرا من الشخصيات التي وردت صفاتها في الروايات السودانية، ثم رجع محملا بالوله السوداني، وترجم لعدد منا، ولا أنسى أبدا، أن اكزافيه، أول من ترجم لي رواية، ووضعني على حافة النافذة التي انفتح لي جزء كبير منها بعد ذلك، أيضا كان سندا كبيرا لزميلي بركة ساكن، صاحب النجاحات الجيدة في اللغة الفرنسية. وفي زيارة لي للخرطوم قبل أن تدمرها الحرب،

وجدت صينيين يتحدثون العربية، وبعضهم باللكنة السودانية، أيضا يقرأون الأدب السوداني، ويعرفون "موسم الهجرة إلى الشمال" ووردتني مرة رسالة من واحد منهم قرأ لي نصا باللغة الصينية، وكان حدثا مبهجا لي. ولعل القاهرة، بوصفها مدينة الزخم الإبداعي الكبرى عربيا، وتعج أيضا بالمستشرقين، حيث يقيم بعضهم هناك بصفة دائمة، تاركين أوطانهم ومنخرطين في الثقافة المصرية، وينقلونها إلى لغاتهم أو يزورونها من حين لآخر، للاستزادة من إيحاءاتها الكثيرة. وكان الراحل همفري ديفز، أحد كبار المترجمين للغة الإنكليزية، ونقل أعمالا كثيرة لتلك اللغة، مقيما هناك حتى رحيله.

السؤال: إلى أي مدى وصلت نافذة الغيطاني في انفتاحها الآن، بعد عشرين عاما من تلك المحاضرة؟

بشيء من التفاؤل، نقول إن الأمر لا بأس به، فقد باتت الترجمات مستمرة، خاصة للإنكليزية والفرنسية، وهناك لغات مثل الكردية والفارسية، اهتمت أيضا، وباتت نصوصنا الآن تترجم باستمرار، ويتحدث عنها قراء تلك اللغات ونقادها حديثا مشجعا.

لكن بشيء من التشاؤم، أقول إن الأمر ما زال غير عادل، ولدينا كتاب وشعراء كبار، ويستحقون أن تترجم نصوصهم، لكن ذلك لم يحدث، هناك من مات على سكة الكتابة ولم يترجم له كتاب واحد، ومن حصل على جائزة، أو دخل في قائمة جوائز معروفة، ولم يعبر. بينما نجد كتابا صغارا، وثمة أعمال غير جديرة، لكنها عبرت

النافذة، إذن ما زالت لم تشرع بصورة جيدة.

نظرة علي البلدة البعيدة

منذ فترة وأثناء اجتياح السيول والفيضانات لكثير من المناطق في السودان، مضيفا مآسي جديدة إلى مأساة الحرب، ومشيدا نزوحا جديدا لأشخاص هم أصلا نازحون من أماكن قتلتها الحرب، انتشر شريط مسجل لطبيب يعمل في مستشفى طوكر، شرق السودان، وهو يسبح في بركة ضخمة من المياه بين بيته والمستشفى، ذاهبا إلى عمله. كان الشريط أو الفيديو مؤثرا فعلا، ليس بسبب ما فعله الطبيب ليمارس إنسانيته، ولكن ما فعلته الحكومات الجائرة، في جعل وطن ضخم وممتلئ بالخير من كل ناحية، ويصلح لرفاهية الناس، جعلته وطنا مجدبا، طاردا لقاطنيه، وفي النهاية قتلته في صراع عبثي، وحرب بلا أي طائل، حتى لنصبح كلنا، مشردين في بلاد لم يفكر معظم الناس في طرقها، بل أن هناك بلادا لم يكن أحد يدري أنها موجودة في الجغرافيا، الآن تطرق من أجل الحياة. هذا المشهد، أي مشهد الطبيب الذي يسبح في مياه الأمطار، أعادني سنوات طويلة إلى الوراء، إلى أيام سيرة الموجع التي دونتها في كتاب لي، يدرسه الطلاب الآن في مدارس المغرب. فقد كنت في مكان هذا الطبيب يوما ما، وسكنت في المكان الذي يسكن فيه، وعبرت تلك المسافة بين السكن والمستشفى، آلاف المرات، ولم أكن أتصور يوما أن تلك البقعة الخاوية، حيث تتراكم البرك، وتعوي الكلاب، ويتبرز البشر، وتموء القطط الضالة الجائعة، ما تزال خاوية هكذا، لم تمتد إليها أي يد تعمرها، ولم يحاول كل من حكم تلك المنطقة المليئة بالخير، والفقيرة في الوقت نفسه بسبب الفساد وسوء الإدارة، بأن يضع فيها على الأقل مدرسة، أو يمد المستشفى الفقير إليها مضيفا مزيدا من العنابر والخدمات؟

وبالرغم من أنني لا أعرف شيئا عن مدينة طوكر الآن، وإن كانت قد كبرت أو ما تزال تلك القائمة على إثني عشر صفا من البيوت المأهولة بالفقر في الغالب، لكن أستطيع قراءتها من مستشفاها، وأعرف أن الخدمات الطبية الآن في أعلى مستوى في الدنيا كلها. هناك تحصينات مستحدثة، وعنابر نظيفة مرتبة، ويوجد أوكسجين، وطوارئ لإنقاذ الأرواح بلا أي عناء كبير، ما على المتوعك في أي ساعة، سواء الاتصال برقم الطوارئ، ويكون في دقائق ممددا تحت العناية المكثفة، للبحث عن علته ومداواتها.

أستطيع تخيل السوق الذي كانت فيه دكاكين ومقاهي محدودة، وبضائع بعضها يأتي من بورتسودان أو الخرطوم ببطء، وبعضها يأتي مهربا من إريتريا عبر الحدود، دكاكين أحمد وعبد الله الحداد، ومحمد صالح، والوجيه حسن الذي كان يسكن في بيت متطور إلى حد ما، به ثلاجة تعمل بالكيروسين، ويملك ألبوما للصور، يظهر فيه يرتدي البدلة ورباط العنق، ويطعم الحمام في ساحة الدوم في ميلانو. إنه تطور شخصي، وحياة مترفة خاصة، لكن لا تخضع لجو البلدة العام الذي كان جوا في منتهى البدائية، لا تستطيع أن توصد باب بيتك، لأن لا خصوصية هناك، ولن يكف الدخول والخروج منه، في أي ساعة. لا تستطيع أن تضع غداء لك ولأسرتك، لأن الغداء يعتبر ملكا عاما لكل العابرين من حولك. هناك أيضا مطعم عبد الحليم، الذي استوحيت أجواءه في أعمال لي، وسميته المطعم المفخخ، نسبة لأن مالكه، والطاهي الرئيسي فيه عبد الحليم، لم يكن قرويا من المنطقة، وإنما عاصمي جاء هكذا واستوطن وتزوج من هناك وأسس مشروعه المربح إلى حد ما.

لا أظن أن ذلك السوق تغير، والحياة هناك كما قلت لا تبدو راغبة في التغير، إنها حياة عصية راسخة في الشقاء، عليك تذوقها هكذا، أو الابتعاد عنها، وأعرف من ابتعد، ولكن ربما لشقاء آخر في مكان أشد قسوة، ومن ظل هناك ولم يخرج أبدا، مثل معلم في مدرسة يعتبر وجوده ضرورة، ومهمة مقدسة لن يتخلى عنها، مثل ممرض كالعم بسطاوي، ولد هناك وعاش ومات ولم ير أبعد من دلتا خور بركة، ومثل سمبابة أوهاج، الممرض العظيم الذي كان يعمل معي، ويقوم بحمايتي، ضد خناجر وسكاكين القرويين التي يمكن أن تخرج من جراباتها في أي لحظة، بسبب ومن دون سبب.

أتذكر طموحات كثيرة صادفتها هناك أيضا، طموحات موظفين دوليين جاءوا للعمل في الإغاثة، وإنشاء مشاريع لم تنجح قط، وكانوا يتحدثون عن إضافة ذلك النشاط الوعر إلى سيرهم الذاتية، والحصول على ترقيات وعلاوات في مجالهم، وأتذكر

بكل حزن محمد طاهر الذي كان ولدا مختلفا تماما، كان في فقره وعزلته البعيدة تلك، ينظر إلى العالم بثقة، وأنه سيصبح طبيبا ذات يوم. كان يقرأ كتبا أكبر من طاقته، يطلبها من بعض الذين يذهبون للعاصمة ويعودون، ولكن لم يعش ليمشي خطوة واحدة أبعد من تلك البلدة، حيث مات بمرض السكر، الذي ظهر عنده وقتله، قبل أن نعرف ما به.

أتذكر أيضا الحي العشوائي الذي كان خلف سكن الطبيب مباشرة، حي عشوائي حقيقي، بيوته من القش والصفيح والكرتون، وتستطيع وأنت راقد في حوش السكن أن تسمع أصوات العراك، وأصوات المتعة الليلية، وأصوات الصغار الذين لا تعرف ماذا ينتظرهم إن كبروا وسط السل والتايفود والملاريا والخناجر المسنونة. أيضا قد لا تنام أبدا بسبب شخير محمد آدم، الذي كان من سكان الحي، ويملك شخيرا أسطوريا، يتفاخر به، ويرفض علاجه باعتباره هبة من عند الله، تمنع أن تقترب منه الكلاب الضالة، وربما الثعالب التي قد تتسكع في بلدة لا تملك أي مقومات البلاد في شيء. ومن الغرابة أنني لم أر محمد آدم ذلك قط، طوال وجودي هناك، وإنما تأرقت كثيرا بشخيره، وأسمع حكاياته وأقواله المأثورة من آخرين، يخرجون من الحي، ويزورون المستشفى.

أتذكر إعصار الإيتبيت، إنه إعصار قاتل، هكذا أسميه، وغالبا ستسميه أي دراسة نزيهة تتعرض للأعاصير، لكن أهل المنطقة يسمونه المبروك الذي يأتي بالمطر ويقود نهر بركة الموسمي من منبعه في إثيوبيا. وكان هذا الإعصار يشكل بالضبط ما شكلته بركة الماء التي سبح فيها الطبيب بالنسبة لنا، كانت الرؤية صفرا تقريبا، وكنا نهتدي بحبل مربوط بين المستشفى والسكن، أو يمسك بأيدينا بعض القرويين ليقودوننا إلى أعمالنا.

إنها ذكريات موجعة، عن بلد موجوع، وبلدة لم يفارقها الوجع أبدا، وأظنها كما وصفتها الآن، أي راكدة في ما قبل ثلاثين عاما، أو ربما نزحت للوراء، ولم يعد حتى ما كان، موجودا الآن

محمد المكي ابراهيم

منذ فترة رحل الشاعر السوداني محمد المكي إبراهيم، أحد الذين ظهروا في ساحة الشعر السودانية، أيام مجد الشعر، الذي يستوعب كل صغيرة وكبيرة، وينتشر سريعا بين الناس، ويردده حتى الذين لا يعرفون ماذا تعني الكلمات، وما ضرورة كتابتها.

ومعروف أن ذلك الزمن الذي يعتبر جميلا فعلا، أتحفنا غير محمد المكي بشعراء أفذاذ مثل محمد عبد الحي، والنور عثمان أبكر، وآخرين ما زالت قصائدهم تختال في أرض الشعر، رغم مرور سنوات طويلة على كتابتها، ولعل النضال ضد الاستعمار، والوطنية الجارفة بعد زوال الاستعمار، إضافة إلى التأثر المبرر بالثقافة الافريقية، والميثولوجيا والأساطير، أسهم في ذلك التميز.

أعرف محمد المكي إبراهيم كشاعر رمز، منذ زمن طويل، وأنا من جيل تعلم حيل الكتابة الروائية من حيل الشعر، وكان هو من الذين حفظت قصائدهم، ورددتها في محافل مختلفة، أيام المدرسة، في الجمعيات الأدبية، والاحتفالات الوطنية التي يحضرها أولياء الأمور، وتوزع فيها الجوائز، وبعد ذلك أيضا، ليست تلك التي تسمى الأكتوبريات، فقط، وتتحدث بجسارة عن ثورة أكتوبر/تشرين الأول المجيدة، بداية ستينيات القرن الماضي، التي تغنى بها الشعر كثيرا، وسطر فيها الملاحم، وغنى أيضا المطربون في هواها، ولكن حتى تلك القصائد الأخرى التي اشتهر بعضها، مثل: بعض الرحيق أنا والبرتقالة أنت، وقصيدة: إهانات شخصية لابن الملوح، التي تجلت فيها شاعرية المكي بشدة، وبرز خياله الجميل، في توجيه عتاب شفيف لقيس بن الملوح، سيد العشق العذري، عبر التاريخ.

كانت تلك القصيدة، أعني إهانات شخصية لابن الملوح، من قصائدي التي أرددها يوميا، حتى بيني وبين نفسي، وأندهش من خيال الشاعر الذي، قال فيها ما لم يقل أحد غيره، في قصة حب أسطورية، عبرت التاريخ إلى زماننا، وقطعا تعبر إلى أزمنة مقبلة. كل يكتب عن روعة الحب، ولم يفكر أحد في إذلال الحب، وإن ما حدث لقيس كان إهانة وليس مجدا. بعد ذلك بسنوات كنت عرفت فيها النور عثمان أبكر، وتحول إلى أب روحي لكتاباتي، وقارئ أول وناصح لكل ما أستطيع كتابته، التقيت بمحمد المكي في الخرطوم، كنت قدمت روايات لا بأس بها، ودعيت مع المكي إلى حفل تكريمي لنا معا أقامته وزارة الثقافة، أيام أن كان الشاعر صديق المجتبى وزيرا، وكان رجلا يقدر المبدعين كثيرا. كان المكي قد جاء من أمريكا التي يقيم فيها منذ تقاعده، في إجازة بدت لي استكشافية مع احتمال عودة عكسية للسودان، للحياة وسط أهله ومحبيه. ولأن شاعرا في ضخامته وشهرته لا يمكن العثور عليه بسهولة، انشغلت بمحمد المكي، حدثته عن قصائده التي أعشقها والتي أعرفها من دون عشق كثيرا وأسمعته إهانات شخصية لابن الملوح وطرب لذلك، ومعروف أن الشعراء تطربهم قصائدهم حين يرددها آخرون، حتى الكتاب النثريون، يطربون أيضا إن وجدوا من ينشغل بنثرهم، ويقرأه على مسامعهم.

كان شهرا عظيما وممتعا بصحبته، ذلك الذي قضيته في الخرطوم، نلتقي يوميا، نجلس في محل إقامته منذ الصباح إلى أول المساء، نتحدث في الشعر والأدب، أهديته روايتين لي كانتا متوفرتين تلك الأيام، وعرفت أنه حاول كتابة الرواية، لكنه لم يكن مقتنعا بما كتبه، وقد يحاول الكتابة مرة أخرى، لكن لا أظنه فعل.

الشيء الذي لاحظته في اقترابي من الشاعر تلك الأيام، أنني لم أكن وحدي من يتحاوم حول تجربته، ويلتقيه يوميا، كان ثمة كتاب وشعراء وصحافيون، وبعض المحبين الذين ليسوا مبدعين، كلهم يغرفون من النبع، بعد أن توفر في البلاد في ذلك الصيف. كان يقول إنه قد يستقر هنا، وسط الناس، وقد يسافر ويعود باستمرار، وغالبا سيبقى في النهاية، والحقيقة لم تكن البلاد في أي وقت مغرية بالبقاء فيها، لمن جرب الحياة في الغرب، إنها بلاد نعشقها بكل ما فيها من عدم إغراء، وحتى بعد أن دمرتها حرب العبث، تظل البلاد الجميلة في نظر من تآلف معها.

ما يمكن قوله إن تجربة شعراء ذلك الجيل كانت مسنودة شعبيا بشدة، أي شاعر منهم كان يمكن أن يحيي أمسية كاملة وغاصة بالجمهور، تماما مثل أي مغنٍ، بعكس شعراء هذا الزمن، الذين لن تجد في ندواتهم سوى عدد قليل من محبي الشعر، وربما لأن سماع الشعر في ذلك الوقت كان نوعا من الترفيه، بينما الآن تعددت سبل الترفيه، ملغية ما كان سائدا.

أيضا تلاحظ أن تجارب أولئك الشعراء العظماء كانت غنية في المعنى، لكن كانوا مقلين ونادرا ما تجد دواوين كثيرة أو غزيرة الصفحات، وأظنها سمة تسهل ملاحظتها، ولست متأكدا لكن لا أظن قصائد محمد المكي إبراهيم فاقت الستين قصيدة، فلم أر له مجموعات جديدة بعد مجموعاته القديمة.

وعلى الرغم من ذلك يظل محمد المكي إبراهيم صخرة صلدة من صخور الشعر في السودان، وفقده يحدث خللا كبيرا، نحن كقراء وتلاميذ نحس بالاطمئنان في وجود من تعلمنا منهم، ويتهاوى رسوخنا بمجرد أن يرحلوا، وأذكر حين رحل النور عثمان أبكر، وبعده بقليل الطيب صالح، كان الأمر شديد الوطأة.

وفي زمن مظلم مثل الذي نحياه، نحتاج إلى نشيد قوي مثل أناشيد أكتوبر، ليستيقظ النائمون، ويلتفتوا ليلحقوا بما تبقى من أنفاس الوطن.

الإبداع والذكاء الاصطناعي

أعتقد بعد فترة من اكتشاف تقنية الذكاء الاصطناعي وتطورها، واستخدامها في كل المجالات الحياتية تقريبا، لم يعد مدهشا أن تقوم تلك التقنية بعمل كل شيء، ولم يعد مستغربا أن نرى إنجازات كبرى تحدث بواسطتها. والإنسان في سعيه ليهمش نفسه، أو يلغيها في كثير من الأحيان، يبتكر مثل هذه الأشياء، ويستخدمها، ثم يسعد كثيرا وهو يراها تسيطر عليه، بدلا من أن يسيطر عليها وهو مبتكرها.

منذ سنوات قبل الألفية الجديدة، كنا نتحدث عن تقنية استخدام الكومبيوتر في الكتابة، التي كانت قد دخلت عندنا تلك الأيام، وبدأ بعض الكتاب أو لنقل المبدعين استخدامه، وأذكر أن ذلك عد لدى التقليديين كفرا، فكيف يمكن إلغاء الورقة والقلم؟ كيف ينقل الكومبيوتر إحساسك، الذي ينقله القلم وحده؟

كانت ثمة استطلاعات للرأي تجرى بين الكتاب، وكل يدلي برأيه ويدافع عنه، وأذكر أنني شاركت وكنت ما أزال في البدايات، لكن البدايات الجادة، في كتابة رؤيتي الخاصة بعد أن انتقلت للكتابة على الكومبيوتر مبكرا. وكتبت في موقع جهة الشعر الذي كان يحرره الشاعر قاسم حداد مقالا بعنوان "الساحر الذي يجعلني أكتب" كنت أعبر عن انجرافي نحو التقنية الجديدة واستخدامي لأدوات الكتابة والتحرير. بعد مرور سنوات من ذلك، لم يعد الكومبيوتر مشكلة، على العكس أصبح عدم استخدامه هو المشكلة، والمحررون في دور النشر يستاؤون كثيرا من الكتاب الذين يرسلون لهم النصوص مكتوبة بالحبر والورق، وتقريبا منذ خمسة عشر عاما، لم نعد نسمع عن كاتب يستخدم الورق أبدا.

إذن التكنولوجيا تركض والإنسان الذي يطورها، دائما ما يجد حيلا جديدة، والذي يستهلك، يكون أدمن إلغاء نفسه، أو أجبر على ذلك بعد أن يكون الإلغاء رسميا ومعمولا به في الدول.

ماذا تقول عن الهواتف الذكية التي قد تفوق من اخترعها ذكاء؟

ماذا تقول عن بوابات الدخول والمغادرة في المطارات التي ألغت موظفي الجوازات تقريبا، ويمكن عن طريقها المرور من دون أي ختم على جوازك، لكن معلوماتك كاملة تكون انتقلت للنظام.

ماذا تقول عن الروبوتات التي تقوم بكل أعمال الإنسان إذا ما برمجها الإنسان نفسه، لتقوم بتلك الأعمال، وحتى هذه الروبوتات الذي كان عملها في الماضي يقوم بالمساعدة البسيطة، بوجود الإنسان، وأصبحت الآن تعمل وحدها بحرية كاملة، ولا تخضع لإرادة الإنسان إلا حين تتم صيانتها.

بالنسبة للذكاء الاصطناعي والكتابة، أنا واحد من الناس لم أكن أتوقع أن تدخل تلك التقنية في المجال الإبداعي، سأقبلها مثلا في المجال العلمي حين تبحث لك عن أفضل المراجع وأفضل الطرق لتحضر رسالتك الجامعية، وحين تدلك على أفضل البذور مثلا، لتزرعها في أرض بواصفات معينة، وحتى تدلك على طريقة هزيمة عدوك في الحروب التي تنشأ بين حين وآخر. لكن المجال الإبداعي في رأيي مجال إنساني تخييلي بحت، والبرامج التي توضع في هذا الشأن ستمنحك في حدود إمكانياتها ولا يمكن أن تتخيل لك ما هو من المفترض أن تفعله، وحتى ما ستمنحه لك سيكون كلاسيكيا ونمطيا وخاليا من التجريب أو الابتكار.

المسألة أن برامج الذكاء الاصطناعي التي صممت للكتابة الإبداعية، محشوة بمفردات اللغة وببعض الجمل المستخدمة دائما، وليس أبعد من ذلك. هناك أفكار أيضا، لكن كذلك هي أفكار أسميها بايتة، أو مستهلكة. مثلا فكرة الهجرة أو اللجوء من دولة مثل السودان إلى بريطانيا، ستسأل الذكاء الاصطناعي عن كتابة قصة أو رواية بهذا الخصوص وسيكتبها لك. هناك موقع اسمه "هول ستوري جنريتور" يعمل على هذا، سيتطرق في قصة كهذه إلى أحوال السودان، واضطرار الشخص

إلى اللجوء، ووصوله هناك وتشرده، وسيكتب لك بكل بساطة، أن هذا اللاجئ عثر على امرأة بريطانية شابة، ستكون غالبا تملك سلسلة مطاعم، أو صالات تجميل، تسكن في بيت فخم، ولديها سيارة رينج روفر. هذه السيدة ستحبه وتتزوجه، ويمكن أن يبالغ في الأمر، فيحول لك هذا اللاجئ المسكين إلى رجل أعمال يشار إليه بالبنان، نعم يشار إليه بالبنان ستجد هذه العبارة الكلاسيكية. لكن هل هذه كتابة يعتمد عليها؟ هذه وغيرها من نماذج أخرى مشابهة، هل فعلا هي إبداع؟

ما الجديد هنا، بل ما هي تلك المبالغة التي لن تحدث أبدا في الواقع؟ والقصة هنا لا تمنحنا أي ميزة لدى ذلك اللاجئ الفقير، تؤهله لهذه التغيرات، ولا تمنحنا أي شيء عن شعور الفتاة البريطانية، وهي تلغي عقلها ومكانتها الاجتماعية وتتزوج من هكذا شخص. أنا لن أقبل حتى لو أخبرني أنها فتاة فقيرة تلك التي تزوجت الرجل، فما بالك بفتاة غنية؟

الروائي حين يكتب عن الهجرة أو اللجوء، لن يدخل اللاجئ إلى لندن عبر مطار هيثرو، وإنما عبر مراكب الموت التي تتأرجح في البحر، وقد يصل أو لا يصل إلى يابسة أوروبية. سيكتب عن الذين غرقوا كثيرا من التأملات والرعب ساعة الموت وربما الندم من كونهم لم يبقوا في بلادهم بالرغم من قسوتها. سيكتب عن الناجين، قصصا أخرى مهينة، ستقابلهم في إيطاليا واليونان وتركيا، ووقوعهم في أيدي العصابات التي قد تسلخ جلودهم، وإن نجا أحد من كل هذه المهالك، فهو بالكاد يجد عملا كحمال في مصنع، أو ناطور في شركة أمازون، أو مساعد جزار في إحدى القرى الريفية غير المتحضرة أصلا.

أذكر مرة كنت في بريطانيا وزرت إحدى المدن الصغيرة، حيث أحد أقاربي هناك، وعثرت معه على إثنين من هؤلاء الناجين، كانا يطاردان الاعتراف بهما كلاجئين، ويواجهان حياة يومية صعبة. لم يكونا مهمومين بالتطور والتكنولوجيا، والأسواق والمولات التجارية، وحتى رؤية لندن بقدر اهتمامهما بالحياة الأقل من عادية، التي جاءا يسعيان إليها. بالنسبة لرسم الشخصيات، هل يستطيع الذكاء الاصطناعي أن يرسم لك شخصية مثل شخصية الكولونيل أورليانو بونديا في "مئة عام من العزلة" أو شخصية فيرمنتو داثا في "الحب في زمن الكوليرا"؟ أيضا الجغرافيا والتاريخ، والحيوات المختلفة المعقدة، وغير ذلك، هل ممكن استيعابها ونحتها واستخراجها من برامج الذكاء الاصطناعي؟ حتى الآن لا أعتقد، وأميل إلى اعتماد الروائي الإنسان فقط، كاتبا إبداعيا، لكن ما سيحدث لاحقا، لا أحد يعرفه.

مكتبات عامة

من الأماكن التي تعتبر بؤر جذب نضج بالمتعة، على الأقل لأبناء جيلنا والأجيال التي سبقتنا، المكتبات، سواء أكانت مكتبات عامة تتبع الدول، أو مكتبات تجارية خاصة في الأسواق، وأيضا المكتبات التي نجدها دائما في صالونات البعض، مزينة بالكتب في شتى المواضيع، وهناك مكتبات عند أفراد تبدو غنية جدا، وتحوي كتبا ليست موجودة في أي مكان، وحين كان موضوع الكتب رائجا بالفعل، وليس مجرد تجارة في الغالب خاسرة، كنت تجد المزادات تقام هنا وهناك، لعرض النسخ النادرة، ونسمع من حين لآخر أن مثقفا كبيرا، أوصى بكتبه لجامعة أو مدرسة ما، وكان هذا يعد مكسبا كبيرا للأماكن التي حظيت بهذا السخاء.

من عاداتي شخصيا، حين أسافر لأي مكان، زيارة المكتبات، هذه أضعها على رأس أولوياتي، أكثر من زيارة الآثار والمقاهي السياحية، والمولات الصاخبة، وقد أكون داخل مول تجاري، لكنني غارق في المكتبة التي توجد فيه، كما يحدث حين أزور مول دبي، حيث يتركز نشاطي على مكتبة كينوكينيا، إحدى أهم المكتبات هناك، مكتبة عظيمة وراقية، ومرتبة بحيث لا يمكن أن تخرج منها بلا شيء، هناك تحس بأن الكتب لها أرواح وألسنة وتنادي من يتسكع بقربها، وكانت هذه المكتبة التي هي مكتبة فقط، وخالية من أدوات التجارة السائدة في معظم المكتبات مثل الدفاتر والأقلام، والحقائب وألعاب الكومبيوتر، فعلا وسيلة جذب لعشاق الكتب، الذين قد يوجدون في دبي.

مؤخرا، أتيح لي أن أزور مكتبة محمد بن راشد، التي أنشئت منذ عامين، لأول مرة، لم أكن أتصور حجم المكان، ولا ماذا يوجد فيه، لكن بمجرد مشاهدة المبنى الخارجي المصاغ بطريقة فنية جميلة، في منطقة هادئة من دبي، استطعت وضع تصور ما: لا بد أن هناك كنزا في الداخل.

وأعتقد بعد زيارتي تلك، التي رافقتني فيها أميرة الفارس، إحدى الموظفات الملمات بالكتب وخصائصها، وانتهت بجلسة مطولة سخية مع الأديب الإماراتي الموسوعي، محمد المر، الذي يضطلع برئاسة المكتبة، أيقنت أن هناك مكتبات أسطورية فعلا، منها هذه المكتبة، ومكتبة قطر الوطنية، ومكتبة لندن التي شاهدتها مرة، وربما مكتبة الكونغرس الأمريكي التي لم أحظ بزيارتها، لكن أعرف أن فيها كتبا، لم تكتب بعد، وأقول ذلك مجازا، كناية عن ثراء المكتبة، وتزويدها للدارسين والقراء العاديين بما يحتاجونه من جدية ومتعة في الوقت نفسه.

مكتبة محمد بن راشد ليست مكتبة عادية إذن، والنسيج الذي صممت به، سهل ومعقد في الوقت نفسه، لكن يتيح العثور على ما تبحث عنه، هناك مكتبات متعددة داخل المكتبة، مكتبات للأطفال، والكبار، واليافعين، ومكتبات برفوف جاذبة، وأخرى تعمل ببرامج إلكترونية، وروبوتات شديدة الذكاء، تتحرك بسلاسة داخل فضاء المكتبة، وتصعد الأدوار المختلفة لتأتي بالكتب، فالذاكرة الإلكترونية تستوعب الأوامر بسهولة، والروبوت يقوم بكل شيء بعد ذلك، وكنت ذكرت في حديث في مقال سابق عن استخدام الذكاء الاصطناعي في الإبداع، وأيضا في الحياة العامة، إننا نستطيع أن نستفيد فعلا من هذا الذكاء، لكن لا يمكن أن نعتمده كاتبا للرواية، التي هي فعل إنساني تخييلي صعب، وأي محاولة صناعية هنا، قد تفسد ما يكتب، ثم ما هي فائدة أن تكتب بالذكاء الاصطناعي؟ ما دام القارئ نفسه يستطيع أن يفعل ذلك وهو جالس في بيته.

في المكتبة قسم خاص بالنفائس، وهي كتب وأدوات استخدمت في صناعة الكتابة قديما، هذا القسم المحصن، تدخله وأنت لا تعرف كيف كُتب المصحف الشريف، وكيف دوُّن تاريخ كان حاضرا يوما ما، وكيف أن الأقلام المصنوعة من الذهب، كانت هدايا من الملوك للملوك، هذا القسم وحده معجزة لمن أراد البحث والتعمق في تاريخ الكتابة، ولعل دواوين

بعض الشعراء القدامى المكتوبة بخط اليد، في زمن كتابتها أو جمعها لأول مرة، تعطي فكرة كبرى عن تراثنا العربي والإسلامي، الذي قد تكون أهملته الأجيال الجديدة.

بالنسبة للمكتبة الإلكترونية، فهي أيضا موجودة لعشاق القراءة الإلكترونية، مكتبة فيها مئات الآلاف من الكتب، التي نسقت بحيث يتم العثور عليها بسهولة، وتحميلها وقراءتهابأجهزة خاصة بالقراءة، كتب بالعربية ومترجمة وبلغات أخرى.

ولعلي تعرفت على هذا النسق نفسه منذ عامين حين شاركت في ندوة حوارية عن أعمالي في مكتبة قطر الوطنية، نعم الزخم نفسه، والسهولة في الحصول على كنوز المعرفة، ويوجد أيضا قسم للنفائس يحوي ما لم نكن نعرفه عن تاريخ الكتابة.

السؤال الذي لا بد من طرحه، حين تزور مثل هذه الصروح العظيمة، وتتعرف على جمالها، وما فيها من معارف شتى: هل هناك مستفيدون فعلا من كل هذه الكنوز المعرفية؟، هل هناك زوار يمتلؤون هنا، ويظلون ممتلئين إلى آخر أعمارهم؟ ويعودون من حين لآخر للاستزادة؟

لا أعرف حقيقة، ومعظم شباب هذا الجيل مشغولون بالتكنولوجيا في وجهها الآخر، وجهها الترفيهي، الذي يحتله فيسبوك، وسناب تشات، وتيك توك، حيث السهولة في اصطياد المتعة الوقتية بلا احتمال ضئيل لاصطياد معرفة جيدة، وعلى الرغم من أن كثيرا من منصات بيع الكتب، فعّلت تطبيقات للهواتف، يمكن القراءة عبرها، إلا أن ذلك المنحى يبدو متأرجحا نوعا ما، فليس أصعب من قراءة كتاب في هاتف محمول.

لقد كان ثمة طلاب مدرسيون، حين زرت مكتبة محمد بن راشد، وكانوا في زيارة تعليمية من ضمن نشاط مدرستهم، وهذا مبشر، لكن هل كان الطلاب مستمتعون وهم يطوفون في أقسام المكتبة المختلفة، ويتلمسون الكتب؟

أتمنى ذلك، لأن تربية الأجيال قرائيا، تبدأ من هنا، أي تقريبهم من سبل المعرفة.

انفجار سردي

منذ أيام شاركت في ندوة حوارية، في معرض الشارقة للكتاب، عما اصطلح على تسميته: الانفجار السردي، وتحدث فيها مختصون في الكتابة الروائية والنقد، كل من وجهة نظره، منهم الكاتب الإماراتي سلطان العميمي، والروائية الكويتية ليلى العثمان.

في البداية كان ثمة تساؤل: هل الانفجار السردي، بمعنى ازدياد عدد كتاب الرواية في الوطن العربي، بالشكل المخيف الذي نراه الآن، وعدم إمكانية العثور على مدخل لاحتواء كل تلك الكتابة؟ أم الانفجار بمعنى، ترك كل الثوابت الكتابية وراءنا، واختراع ثوابت جديدة، فيها الكثير من التجريب، واللامبالاة، والانطلاق كيفما أراد النص، بلا رقابة؟ في الحقيقة كلا المعنيين يمكن اعتمادهما، ولو قلنا ذلك الكم المخيف من الروايات والأصوات الجديدة، وظاهرة تحول كل الناس تقريبا إلى روائيين، بمن فيهم أشخاص لم يكونوا قريبين أبدا من أجواء الكتابة، مثل سيدات مشغولات بأعباء الحياة، ورجال في أعمار متقدمة، لم يخصصوا وقتا في ما مضى لمثل هذه النواقص كما كانوا يسمونها، وكان ثمة جيل من الناس يعتبرون الكتابة وكرة القدم، أنشطة طفولية وغير مسؤولة. وأذكر أنني التقيت مرة بواحد كان عسكريا مرموقا، سألني بخشونة أن أهتم بمهنتي العلمية، وأترك هذا الدرب غير الناضج، يومها سألته إن كان قرأ شيئا ليحكم على الكتابة بهذا الشكل، فرد بأنه لا يشرفه القراءة بعيدا عن الدين، وهذا الطرح يقودنا لتأمل أفكار كثيرين، يرون أن كتابة الروايات خارجة عن الانضباط، وفيها آثام بلا حصر.

أعود لموضوعي، ولا بد من ذكر أسباب كثيرة وراء هذا التكاثر اللامعقول للرواية، والمسألة قطعا ليست عندنا في العالم العربي فقط، ولكن حتى في أوروبا وأمريكا، وأظن المسألة تحولت إلى فرع مهم من فروع البزنس، في زمن لم تعد فيه الحياة صافية، والحصول على شيء، بالسهولة التي كان عليها. نعم، ستجد إعلانات كثيرة وبجميع اللغات، موجهة للذين يحلمون بالكتابة، وحتى الذين لا يحلمون، لكن كثرة الطرق على آذانهم وأعينهم، ستجعلهم يحلمون بلا شك، إعلانات مثل: اكتب والباقي علينا، أو أيها الروائي العظيم، متى ستكتشف نفسك؟ أو هل اكتملت روايتك؟ نعم اكتملت، فقط أفرغها على الورق واترك الباقي علينا..

ولتتخذ المسألة بعدا أسميه ساطعا، يمكن اعتماد نجومية مؤقتة، لن تكلف الناشر شيئا كثيرا، ولكاتب جديد، أدى ما عليه من تكلفة أصلا ليرى كتابه، أنيقا ولامعا ومتأنقا في معرض الكتاب الذي انطلق في بلاده، أو حتى في بلاد مجاورة، لأن كثيرا من الكتاب الموعودين بالنجومية المؤقتة يستطيعون التنقل من بلد إلى بلد وراء كتبهم، ليوقعوا لأصدقاء ينتظرون هذا التوقيع ويحسون بالإثارة وأنهم أيضا موعودون بكتب مماثلة، سيوقعونها حتما قريبا، في معارض الكتب.

هذا حقيقي فعلا، وليس ترفا متجنيا، ولطالما مررت بكتاب لم يقرأوا لأحد شيئا من قبل، وغير مستعدين أصلا، ويرددون، أن الكتابة لا تحتاج للقراءة، إنها هكذا تولد مع الإنسان، وقطعا الأمر ليس هكذا، فالإنسان نفسه يحتاج لغذاء كي يعيش وينتج، وكذا العقل.

الجوائز أيضا، وهذا أمر تطرقنا إليه كثيرا، وأزعم أن أكثر عبارة مشوقة للكاتب، أي كاتب، حتى لو كان مخضرما، هي عبارة مبروك، التي تردد في حقه إن حصل على جائزة، أو اقترب من الحصول عليها، الجوائز ذات طعم للكتابة الجيدة، الكتابة التي لم تكتب للحصول عليها، وإنما كتبت لتثري، ولتضخ معرفة مكتنزة في ذهن كاتب جيد. أما الكتابة المتعجلة، القاحلة، والتي بلا خيال ولا زاد، فلن تكون جائزتها سوى فرح وقتي، ينتهي سريعا.

لقد كثرت الجوائز العربية كما نعلم، وهذا بحد ذاته زاد في استثمار دور النشر، واستقطاب المزيد من الذين يحلمون أو تضغطهم الإعلانات المكثفة ليحلموا. وهذا للأسف موضوع لا يمكن طرقه من دون أن تأتي اتهامات عديدة بأن الكتاب

القدامى لا يريدون أن يكتب غيرهم، أو يحصل على جائزة.

ما أكتبه، لا أكتبه عن سماع، ولكن أمر بمعارض الكتب، أنتقي بعض العناوين الجديدة، وأحاور الكتاب الجدد، وأجد استعلاء شديدا من بعضهم، وأنهم لا يريدون تواصلا من أي نوع، وأن ما كتبوه هو الأهم والجدير بمتابعته، وأيضا أعمل محكما في الجوائز العربية، وتمر علي الإشراقات، والانطفاءات على حد سواء، وأزعم أن الإشراقات قليلة جدا بجانب ما أراه من انطفاء في المنجزات السردية.

لماذا إذن كل هذا العناء؟ ولماذا لا يخضع من يريد الكتابة لمحاسبة دقيقة من نفسه أولا، ماذا قرأ، ولماذا سيكتب؟ وهل سيضيف شيئا إن كتب، أم تلك الأفراح الوقتية التي ذكرتها، وينتهي الأمر؟

لا أعرف صراحة أي فائدة من الصرف على الكتابة، التي هي أصلا لا تأتي بشيء كثير، إن أتت، ولكن لن نقول للناس لا تكتبوا، فكل من أراد الكتابة لا مشكلة، فقط ليصبح الأمر جادا، وبلا نوايا استثمارية. والآن ثمة قراء جدد، ظهروا بكميات معقولة، نريدهم حين يقرأوا أن تكون قراءتهم مثمرة.

بالنسبة للمعنى الآخر، أي انفلات النص السردي عن معاييره القديمة، والبحث عن أراض أخرى للرسو فيها، هذا موجود ونشجعه كثيرا، فالكتابة النمطية ليست جاذبة للقارئ في رأيي، والباحث عن التميز، عليه أن ينفلت أو ينفجر سرديا بالمعنى الآخر الجميل، وعموما الكتابة شيء رائع، إن امتلك الكاتب أدواته، واختال نصه بها بين النصوص.

تساؤلات إبداعية

في لقاء مع القراء، في أمسية حضرتها في الشارقة، وكانت من أجل الحوار المباشر مع الكاتب، الذي من المفترض أن يكونوا قد قرأوا له شيئا، أو على الأقل يعرفون طريقته في الكتابة، كان ثمة سؤال أعتبره مهما للغاية: هل يضع الكاتب في ذهنه شريحة معينة من القراء وهو يكتب نصه؟ بمعنى هل يدرك الكاتب أو يتعمد أن يكتب نصا سهلا أو معقدا، من أجل قارئ موجود في ذهنه، ويتوقع أن يصل النص إليه؟

صراحة لا أعرف الإجابة على وجه التحديد، فلطالما كانت الكتابة نتاجا لشيء من الوعي واللاوعي، والكاتب في الغالب لا يدرك تماما ماذا كتب قبل أن يعود إلى نصه ويراجعه ويضيف إليه، أو يحذف منه، لذلك لن نقول إنه كان يستهدف قراء يافعين، حين كتب هذه الرواية، وقراء مخضرمين، حين كتب تلك الرواية الأخرى، وما يكتبه القراء في موقع مثل (غودريدز)، هو انطباع عن قراءاتهم ليس إلا، أي أن القارئ المخضرم أحس في نص ما لكاتب يعرفه، أن ثمة سهولة غير معتادة، وافترض أنه لم يوجه ذلك النص له، وإنما لقراء أقل استيعابا، وهكذا يحدث مع نص آخر.

حقيقة حين تمضي سنوات في الكتابة المستمرة، يكتسب الكاتب تلك البصمة، أو السمة التي تتضح في كتابته، غالبا يصبح أسلوبه واحدا، مع اختلاف الأفكار والمعالجات طبعا، مع كتابة كل نص. هذه البصمة التي تحدثت عنها كثيرا، والواضحة جدا عند كتاب مثل ماركيز وكونديرا، وأمين معلوف مثلا، تمنح المبدع تميزه، وهذه يدركها القراء المحنكون، وحين يجدون نصين مختلفين في مسألة السهولة والتعقيد، لكن بالأسلوب نفسه، لن يستغربوا، ولكنهم سيرددون ما يردده الكاتب نفسه، بأن كل نص له ظروف معينة، تأتي به، تختلف عن نص آخر، بظروف أخرى.

الأفكار تقريبا واحدة، ومعظمها مطروق من قبل من يمتهنون الكتابة، فقط تأتي تلك المعالجة الأسلوبية لتفرق الأمور، كما ذكرت. قصة الحب مثلا، إنها قصة الحب نفسها التي عاشها قيس، وعاشتها ليلى، ويعيشها الناس يوميا في كل زمان ومكان، وكتبت عنها آلاف القصائد والروايات، ولكن كلما قرأت قصة حب، لن تقول، إنها تلك الفكرة المعروفة، بل تبدو لك فكرة جديدة تماما، بناء على صياغتها الجديدة، قطعا العاشق يرتدي في كل نص، مفرداته الخاصة، والمعشوقة تزهو بتفاصيل لم تذكر من قبل، أو ذكرت، ولكن بأسلوب مختلف.

وحين كنت أكتب "366"، التي استوحيتها من قصة واقعية حدثت في مدينة بورتسودان آخر سبعينيات القرن الماضي، لم يخطر ببالي قصص العشاق التاريخية المعروفة، إنها قصة رومانسية، مؤلمة إلى أقصى حد، ربما يشبه بطلها أولئك التاريخيين البؤساء، لكن قطعا ليس مثلهم، والفتاة التي كتبت لها رسالة العاشق، كانت هنا أشبه بخيال، بعيد، غير موجود تماما. خيال تحيط به الأحداث وتطارده، ولا يظهر فيها. لذلك لم أجب على السؤال بصراحة، فكرت بأن أقول إن المسألة ليس فيها استهدافا لقارئ معين، لكن أيضا أحسست بأن من طرح السؤال وكثيرين غيرهم، لن يقتنعوا، خاصة أن هناك فروعا في كتابة الرواية، يعرفها الجميع، وهذه تدل على استهداف القارئ، فحين نقول رواية لليافعين مثلا، فنحن نعني أولئك اليافعين، وتوجد في أوروبا روايات موجهة للكبار، أي أن فيها فقرات لا تصلح أن يقرأها مراهق أو طفل، وهناك أيضا أدب خاص للمثليين لا يقرأه غيرهم. سؤال آخر في الأمسية نفسها، وهو سؤال مشروع بلا شك، خاصة أن الكتاب هم في الأول قراء قبل أن يصبحوا كتابا: هل يستمتع الكاتب بنصوصه بعد أن ينجزها؟، أي هل يقرأها بحياد ويستمتع أو يضجر منها؟

نعم، معظم الكتاب يطالعون نصوصهم بعد أن تنشر، ويضمها كتاب، يمسكون بالكتاب بين أيديهم، ويحاولون الانغماس فيه، ولا شك يستمتعون ببعض ما كتبوا، وقد يملون من البعض، وبمرور الزمن وعند العودة لرواية قديمة، كتبت منذ

سنوات، قد يجد الكاتب وبحياد تام، عيوبا في الكتابة، وفقرات لا بد من ملئها، ولا أستحي حين أقول إنني أقدمت مرتين على هذه الخطوة، مرة ذكرتها، ومرة لم أذكرها، وأحسب أنني حسنت فعلا من نصي حين أعدت كتابته.

على أن هناك من لا يقرأ أعماله أبدا بعد نشرها، ويعتبرها أمرا تم تجاوزه، ومرة قرأت حوارا مع كاتب أمريكي، قال إنه لم يحدث أن قرأ رواياته المنشورة، ولا حتى امتلكها في بيته، وبالنسبة للمراجعات التي يكتبها القراء والنقاد، هذه أيضا لا يقرأها، ولا يهتم بها. وأظن أن هذا خوف غير مبرر، أن تكون فيها عيوب أو نواقص قد تقلل من قيمتها عنده، ولذلك يفضل أن تظل هكذا بعيدة عنه.

السؤال الأخير المهم، وهو مسألة تغيير العناوين للروايات المنشورة حين إعادة طبعها، هل هذا أمر مشروع؟ وهل تنبغي الإشارة إليه؟ ولماذا أصلا يتغير عنوان نص؟

نعم، الأمر يبدو مزعجا فعلا، ومن المفترض أن العنوان الذي صدر به الكتاب، يظل هكذا حتى لو طبع عشر مرات، لكن الذي يحدث أن ثمة حوارا يدور بين الكاتب والناشر الجديد، الذي يرى ضرورة تغيير العنوان لدواعي الدعاية والتسويق، وأنه أكثر ملاءمة من العنوان الأول، ولو اقتنع الكاتب، فلا بد من الإشارة إليه، حتى لا يظن القارئ أن العمل جديد، وهذا ما حدث عندي في رواية "تعاطف"، التي أصبح اسمها "حارس السور"، ولا أحس بأنني خدعت أحدا، فقد أشرت إلى ذلك.

هكذا أجبت على هذا السؤال، ودائما ما أستفيد من مثل هذه الأسئلة، وأرى أن القارئ الحقيقي، مرشد كبير للكاتب.

عزلة ماركيز المصورة

منذ فترة هذا العام، صدرت رواية بعنوان "نلتقي في أغسطس"، أو "نلتقي في آب"، للروائي الكولومبي الراحل غابرييل غارثيا ماركيز، وقيل أنها كتبت بالتزامن مع روايته الأخيرة التي نشرها في حياته "ذكرى غانياتي الحزينات"، لكنها تركت هكذا في إرشيفه، ووسط أوراقه من دون أن تنشر، ليأتي الورثة بعد ذلك وينشرونها، طمعا في ما تدره من ربح بكل تأكيد. وقد ذكرت في هذا الموضوع ومواضيع أخرى مشابهة، أن كاتبا بحجم ماركيز، حين لا ينشر عملا في حياته، فهو بالطبع غير راض عنه، وليس من اللائق نشره في غيابه. وكلنا نملك أعمالا غير راضين عنها، تظل حبيسة في كومبيوتراتنا، لا ننشرها ولا نفصح عنها ولن نرضى بأن ينشرها أحد حين نغيب.

الآن عرضت منصة نتفلكس مسلسلا مأخوذا من رواية "مئة عام من العزلة"، تلك الرواية الملحمة، أو الرواية الأيقونة التي كانت وحدها مدرسة تعلمت منها أجيال كتابية كثيرة، ذلك بما تحتويه من زخم إبداعي لغوي، وخيال كثيف خصب، وشخصيات لا تنسى أبدا. وهي بلا شك رواية مؤسسة لما سمي بالواقعية السحرية بعد ذلك، وإن كانت ثمة كتابات عديدة في هذا النمط سبقتها، وأعتقد أن رواية بدرو بارامو ربما كتبت قبلها. وحتى في أفريقيا، أعتقد أن رواية "أشياء تتداعى" للنيجيري تشينوا أشيبي، كتبت قبلها، وإن لم أكن متأكدا، وعندنا في التراث العربي ألف ليلة وليلة، ذات الإيحاء السحري العظيم.

مسلسل "مئة عام من العزلة"، يبدو من حلقته الأولى مدهشا جدا، ويلتزم إلى حد ما بخط الرواية التي كتبها ماركيز، ليكتب المخرج رواية أخرى نشاهد سحرها أمامنا.

إن المخرج، بالرغم من العدد المحدود للحلقات، استطاع أن يعطي الرواية حقها، ويستند على الشخصيات نفسها في بنائه لروايته المشاهدة، ولأننا كنا نتوق لرؤية قرية ماكوندو التي أسسها خوسييه أركاديو بونديا، بعد خروجه من قريته الأولى، مع نفر من أصدقائه، ثم ربطها مع العالم بعد ذلك، فقد جاء المسلسل ليصنعها لنا. نعم كان موفقا جدا في بناء ماكوندو بكل بيوتها وأزقتها، ومزارعها وناسها وحيواناتها، وأيضا بنزقها، ونسائها التواقات إلى الحب والعطف، وأولئك الرجال الذين يبيعون ويشترون ويعشقون، ويرقصون ويغنون. وبالنسبة لعائلة بونديا، بدا لي خوسيه الممثل، هو خوسيه الموجود في الرواية نفسه، الشخص المتهور، الطموح المتميز وسط عائلته ومجتمع القرية، ثم الغارق في أوهام الكيمياء، وعلم الفلك، والعاشق لأورسولا أولا وأخيرا.

تبدأ الرواية التي كتبها ماركيز بمشهد وقوف الكولونيل أورليانو بونديا أمام فصيل الإعدام، وتذكره لطفولته حين أخذه أبوه لأول مرة لرؤية الجليد، الذي أحضره الغجر حين جاءوا إلى القرية. هنا يستخدم المخرج صوت الراوي العليم، ليخبر بذلك الحدث، وليظهر بين حين وآخر ليخبر عن تقدم الزمن، أو مضي السنوات، وأعتقد أن تقنية كهذه كانت مهمة لأنه من الصعب تتبع أحداث في عمل كبير مثل هذا، من دون فهم. الراوي هنا يشرح الغوامض، ويوضح كيف انتقل طفل مثل أورليانو مثلا، إلى صبي مراهق غرسه أبوه في مختبر الكيمياء، ثم إلى كولونيل، ومحكوم بالإعدام.

شخصية أورسولا، أيضا كما كتبت في الرواية، المرأة القوية المكافحة، التي تجد نفسها مسؤولة عن بيتها وأسرتها، حين انشغل الزوج عنها، أولا بغيابه الطويل، بحجة اكتشاف العالم، ثم بانعزاله في مختبره الذي أنشأه في البيت بتحريض من ملكيادس الغجري، الذي أصبح صديقا له، وزوده بالخرائط والمواد اللازمة لصناعة الذهب، والمعادن عموما.

شخصية أورسولا بدت هي المكتوبة، وكأنها خرجت من الورق، لعالم التصوير من دون أي رتوش، وبالرغم من أنني لا أستطيع تذكر أسماء الممثلين اللاتينيين الذين أدوا هذه الأدوار، إلا أنني أعتقد في مقدرتهم، وغالبا هم نجوم في بلدانهم.

شخصية خوسييه الابن الذي فر من القرية بعد أن حملت بيلار، المرأة قارئة البخت، التي كان يقيم معها علاقة، وولدت بعد ذلك طفلا تم تسميته أورلاندو، وضمه إلى عائلة بونديا، هي أيضا شخصية مقنعة، وشخصية المرأة بيلار، شديدة السطوع، وأدت دورها بجمال وفتنة.

بالنسبة لملكيادس الغجري، الذي حمل معه كل تلك الأعباء إلى ماكوندو، وصادق خوسيه بونديا، وعلمه الكثير، ورصف له طموحا غريبا ومرهقا، ثم مات وعاد إلى الحياة مرة أخرى، ليصف الموت وشجونه، لم يبد لي مقنعا كما في الرواية. ملكيادس في الرواية، كان صاخبا، مجنونا، وسريع التحرك، بينما ملكيادس المسلسل يبدو عاقلا ورزينا، وأقرب إلى سكان المدن المستقرين، منه إلى الغجر المترحلين. لكن ذلك لم يمنع تجانسه في العمل، وأنه أيضا من عطور ماركيز التي لم يفسد المسلسل أريجها.

عموما، مسلسل "مئة عام من العزلة" يبدو مقنعا إلى أقصى حد، وهو من المسلسلات التي لن يحتج كتابها الأصليون على تشويهها كما نرى في كثير من الأحيان، حين يظهر كاتب إعلاميا لينفي علاقته بالمسلسل الذي أخذ من قصته. وقد تحدثت مرة في هذا الموضوع، وذكرت أن مجرد موافقتك على تحويل قصة لك للسينما أو التلفزيون، يعني أنك توافق على معالجتها بأدوات أخرى، بعيدة عن أدوات الكتابة.

بمعنى أن الأدب شيء، والسيناريو شيء آخر، يمكن أن يلتزم بالقصة، ويمكن أن يركلها بعيدا، ويستعين بالفكرة فقط لصناعة إبداع آخر.

أصداء الأدب العربي

في نهاية عام 2024، الذي انتهى تاركا ذكريات أليمة جدا للبعض، وذكريات مفرحة لآخرين، خاصة السوريين الذين بدأوا خطوة في استعادة بلادهم، تلقيت رسائل عديدة من بلاد مثل الهند وإندونيسيا، وسنغافورة، وماليزيا، كلها مكتوبة باللغة العربية، ويتحدث مرسلوها بزهو، عن أنهم يعرفون الأدب العربي، ويدرسونه في الجامعات، أو يقومون بتدريسه أيضا في فصول معينة، وأنهم يعرفون كتاباتي ويعرفون ما كتب صنع الله إبراهيم، وعبدالسلام العجيلي، وبالطبع نجيب محفوظ والطيب صالح، وعدد آخر من الأدباء العرب البارزين، وقد أشار بعض مرسلي هذه الرسائل إلى قيامهم بالترجمة لمقاطع من رواياتي، وروايات غيري، ويرغبون في تكملة الترجمة بعد الحصول على إذن.

في الماضي وحتى عهد قريب، لم يكن ذلك يحدث، أي لم نعرف اهتماما جديا بالأدب العربي، الذي يعتبر في اللغات الأخرى، أدبا ثانويا بلا قيمة كبيرة، وباستثناء أدب نجيب محفوظ، ومحمود درويش، والطيب صالح وعلاء الأسواني إلى حد ما، لم يصل شيء إلى العالم بالصورة المطلوبة، وسيكون الأمر صادما لو عرفنا أن هناك مترجمين أو مستشرقين مهتمين حقا، ونقلوا روايات وقصائد وقصصا كثيرة جدا للغاتهم، ولم يكن التوزيع جيدا، أي القارئ في البلاد التي يترجم إليها الأدب العربي، قد لا يلتفت أبدا إلى رواية عربية في مكتبة، ولكن يلتفت وبشدة لرواية من الهند أو الصين أو أمريكا اللاتينية.

وأذكر أن ناشرا من بولندا أراد ترجمة كتاب لي، وخاطبني باللغة الإنكليزية، ليعرف رأيي، وقال لي مباشرة من دون موارية، إنه لا يتوقع بيع نسخ كثيرة، ويعرف تماما إنه لن يربح شيئا، وإنما يقوم بنشر كتابي حبا في المغامرة. أذكر أن حب المغامرة هذا استفزني، أو أغاظني على وجه التحديد، لماذا يعتبر نشر أدبنا نحن العرب مغامرة؟ وهل هناك دراسات جادة قام بها ناقلو الأدب العربي إلى اللغات الأخرى، تبين سبب عجزه عن اختراق الأسواق هناك؟ خاصة أنه في رأيي الشخصي أدب متميز وجديد في معظم الأحوال، والبيئة التي يغرف منها الكتاب العرب، جديرة بمنحهم دررا، حين تقرأ مثلا عن الريف المصري وسحره، والتاريخ العربي المصاغ روائيا، وحين تقرأ الأدب الخليجي المتميز، والأدب الفلسطيني المقاوم، لا يسعك إلا أن تندهش.

الناشر لم يستطع الإجابة عن سؤالي حين سألته، لماذا تغامر إذن؟ ويوجد مترجم سيتقاضى حقوقا، والكاتب نفسه سيتقاضى، حقوقا، واكتفى بأن قال، أريد أن أغامر وكفى.

وحين قمت بالبحث عن الكتب المترجمة للبولندية، اكتشفت أن خمسة أو ستة كتب فقط ترجمت لتلك اللغة، وعرفت أن ثمة كساد بالفعل هناك، وأظن أن بولندا مجرد مثال، لدول أخرى غامر بعض الناشرين فيها، في نقل روايات عربية إليها. قلت إذن أن الأدب العربي لن يصل إلى العالم بهذه الطريقة، أي الطريقة الفردية في نقل الأعمال، وأذكر أنني دعوت إلى عكس الترجمة التي تدعمها المؤسسات الكبرى في بلادنا، في نقل الأعمال الأجنبية إلى العربية، لماذا لا تنقل الأعمال العربية إلى اللغات الأخرى، مدعومة من مؤسساتنا؟

الآن كل تلك التساؤلات تمت الإجابة عليها، وأصبحت هناك دول داعمة لعملية الترجمة إلى الخارج، ولديها وكلاء يقومون بذلك، والسعودية مثلا، تقوم بذلك باستمرار، وتنشر ما يترجم في أفضل دور النشر في الغرب، هناك دور نشر في مصر أيضا، وفي عمان وغيرها، تفعل ذلك، كما أن اختراع الذكاء الاصطناعي بإمكانياته الكبيرة، ساعد في الترجمة كما ساعد في مجالات أخرى، لا أقول إنه يقوم بالترجمة الكاملة، ولكن يساعد المترجمين كثيرا ويقلل التكلفة، ويختصر الوقت، والأدوات التي توجد فيه، كثيرة ومتعددة ومذهلة. وأظنني كنت متحفظا في موضوع كتابة النصوص عن طريقه، وما زلت متوجسا من إمكانية أن تكتب رواية كاملة بإحساس الذكاء الاصطناعي.

شيء آخر، ازدياد الحروب والنزاعات واختيار العرب للمنافي، والنزوح بحثا عن حياة أفضل، واستقرار الملايين في أوروبا وأمريكا وأستراليا، قرّب الثقافة العربية إلى شعوب تلك الدول، التي كانت تجهلها تقريبا، وبالتالي قرب لغتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ومن ضمن ما اقترب: الأدب، لذلك لن يكون غريبا أن يتذوق القارئ الأجنبي آدابا بات يعرف منتجيها جيدا، ويجاورهم في السكن، وقد يقاسمهم لقمة العيش أيضا.

وأظننا نعرف جميعا أن اللغة العربية الآن في السويد، هي اللغة الثانية، وتقام معارض الكتب العربية هناك باستمرار. لقد سألت القارئ الإندونيسي الذي راسلني، وواضح أنه يجيد العربية، ويقرأ بها، كما قال: هل تواجه صعوبة في فهم بعض النصوص؟

رد: نعم، خاصة الجمل والتراكيب الشعرية، لكني أستعين بآخرين يفهمون أكثر، وربما استعنت ببعض العرب الذين أعرفهم.

وبالطبع هذا شيء طبيعي، فمهما درست لغة ما، لن تكون ملما بتضاريسها جيدا، وأذكر أن أحد مترجمي للإنكليزية، كتب اسم: ملك، وهو اسم نسائي معروف عربيا، إلى" كينج"، وأخبرته بأن هذا اسم وليس صفة أو لقبا. عموما الأمر مبشر جدا، وأعتقد أن كثيرا من المبدعين الشباب الآن، مستعدون لاجتياز ركود الترجمة السابق، والحضور في لغات أخرى.

لقاءات الطلاب

في لقاء افتراضي مع طلاب وطالبات مدرسة ثانوية في دولة الإمارات العربية المتحدة، لمناقشة إحدى الروايات المقررة عليهم، كانت ثمة أسئلة عادية، يمكن أن يسأل عنها الكاتب في أي وقت، وأسئلة أخرى جيدة، تبحث عن إجابات، وتبين ما تحمل تلك الأذهان الشابة من هموم وتطلعات، في زمن تعقدت فيه الحياة، وأصبح من الصعب الحصول على وظيفة أو مال أو حياة خالية من المتاعب. ونعلم جميعا أن الحروب الأخيرة في المنطقة قضت على كثير من الآمال، والحقيقة أنها دكت حتى الآمال التي استطاعت أن تتشيد بجهد وعرق كبيرين، ولم يصبح البعض بلا مأوى فقط، ولكن حتى بلا أمل يتكئون عليه.

من الأسئلة التي اعتبرها جيدة، ما سأله طالب، قال إنه يقرأ منذ الصغر، ويعرف الكثير عن الأدب والأدباء، ولطالما حلم بلقاء أحد الكتاب ليسأله: هل الأدب ضرورة؟ هل فعلا نحتاج لأدباء وسطنا؟ بينما تنحدر معدلات القراءة بسبب الفقر، والحروب والتشرد في المنافي، ومحاولات الحصول على لقمة العيش؟

بصراحة لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل، ولطالما كنت أعتبر الأدب قوتا يوميا موازيا لقوت البطن، يسير معه جنبا إلى جنب، ومثلما أشتري الخبز والخضروات من مصادر بيعها، أعرج على المكتبات لشراء حاجتي من الكتب. وأعرف أشخاصا من جيلي، وأيضا من أجيال جديدة، لا تعتبر الحياة جديرة بالعيش بلا قراءة، وهؤلاء يشترون الكتب في أحلك الأوقات، ودائما ثمة كتاب يصاحب تجوالهم وجلوسهم في ساعات الاسترخاء.

ولعلنا اعتدنا على مشاهدة أشخاص منهمكين في القراءة، أثناء إجراءات السفر في المطارات، وعلى مقاعد الانتظار في صالات المغادرة، وحتى في مواصلات النقل العام، ومرة كنت قادما من الخرطوم، وصادف أن شاهدت فتاة تضع الرواية المشهورة "هبتيا" للكاتب محمد صادق، أمام عينيها، وتقرأ باهتمام، ولم تترك الرواية حتى بعد أن وصلت الدوحة، ووقفت أمام المطار تبحث عن سيارة أجرة. كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها بتلك الرواية، وبحثت عنها بالطبع، وبالرغم من أنها لم تكن في حيز تذوقي، إلا أنها كانت مقياسا حيويا لاهتمام البعض بالأدب وتفضيله على كثير من الأشياء الأخرى.

ولعلي أضيف أنني عشت طفولتي في زمن لم يكن فيه أي ترفيه، أو أي اختراق للعوالم الغامضة، بوسيلة أخرى غير القراءة، مثلما يحدث الآن، حيث تستطيع باستخدام هاتفك أن تصل إلى أي مكان، وتتعرف على أي معلومة مهما كانت بعيدة، أو تافهة. لذلك كان الأدب ضرورة أيامنا، نتعرف عن طريقه على ثقافات وأساطير ومعلومات غاية في الجمال، لا بد نجهلها، حتى القصص البوليسية البسيطة التي كانت تتخذ أبطالا في أعمارنا، يحلون الألغاز ويعاونون الشرطة، كنا نعتبرها ملهمة جدا، وملاذا لا بد من الاتكاء عليه، ونتشوق بشدة ونحن ننتظر عملا جديدا يصدر في سلسة تلك القصص البوليسية.

إذن كان الأمر ضرورة قصوى، وبعد أن كبرنا، استمر معنا ضرورة قصوى، وإلى الآن تجدني وتجد معظم أبناء جيلي، قراء دائمين للكتب في شتى مجالات المعرفة. وأستطع القول أن التكنولوجيا الحديثة لم تمنعنا من القراءة، لكن سهلتها لنا، بوجود نسخ إليكترونية للكتب التي يصعب الحصول عليها، بسبب صدورها في أماكن بعيدة عن التناول، وأيضا وجود مكتبات ضخمة تحتوي على نسخ رقمية، مثل مكتبة الكونغرس في أمريكا، ومكتبة قطر الوطنية، ومكتبة محمد بن راشد في دبي، وعديد من المكتبات الأخرى في العالم.

قلت للطالب صاحب السؤال بكل ثقة، إن الأدب ضرورة، وإنك لا تستطيع أن تعيش مهندسا فقط، أو قاضيا فقط، أو طبيبا فقط، ولكن لا بد من وجود جانب قراءة الأدب وغيره من العلوم في حياتك، والعوامل الاقتصادية، قد تمنع شراء الكتب الكثيرة، والمشتهاة، ولكن لا بأس من كتاب كلما سنحت الفرصة.

يقودني ذلك إلى ذكر المكتبات الأهلية التي توفر الكتب في أحلك الظروف، برهانا على أن هناك من يسعى لتلك الكتب بالفعل مهما ساءت الأوضاع، وأذكر بكل جمال مكتبة سمير منصور في غزة، التي لم يستطع القصف العدائي الذي دكها مرة، أن يقضي على فكرتها. إنها هي المكتبة الجميلة، العظيمة، التي تنهض من العدم، حاملة ثمار الفكر والأدب لعشاق القراءة.

وأيضا كانت مكتبة الفرجاني في ليبيا موجودة دائما، وتنشر الكتب وتوزعها، برغم عدم الاستقرار، وعندنا شباب في السودان، يحصلون على الكتب ويناقشونها في جلسات القراءة، برغم ما يحدث في السودان من أهوال، لا يعرف أحد حتى الآن متى تنتهي.

من الأسئلة الأخرى المهمة، في لقاء الطلاب، ما نتج من طموح البعض منهم أن يصبحوا كتابا ذات يوم. أكثر من واحد سألوا عن كيفية الحصول على أسلوب مميز للكتابة، وقد أجبت عن هذا السؤال بصعوبة الأمر، إذا كان الكاتب كسولا ويعتمد على موهبته فقط، فلا بد من قراءات كثيرة ومكثفة، وملهمة للأدب وغيره من المعارف، من أجل تكوين الأسلوب. ولعل من الصعوبة الادعاء بأنك كاتب، وأنت مجرد عضو في جوقة موسيقية، لا يعرف من يغني فيها؟ في هذه الحالة، لا ينبغي الكتابة.

هذا الجواب كان ناتجا عن قناعاتي، ولذلك أبحث دائما عن الكتابة المميزة، للاطلاع عليها، ومشاركتها مع آخرين، وربما إضاءتها في مقال، إن كانت في رأيي تستحق.

لقاءات الطلاب في المدارس أمر ممتع للغاية، هنا تحس بأنك تتفاعل ببراءة، ومع أبرياء لا يسألون أسئلة القصد منها إيلامك، أو الاستخفاف بتجربتك، مثل السؤال الذي سأله لي مرة أحد الحاضرين في ندوة عامة: هل أنت روائي حقا؟

غرائبية الأشخاص والحكاية

كتب لي قارئ من السعودية، يسألني عن شخصيات كتبتها بغرابة، وهل من الممكن أن تكون هناك شخصيات شبيهة لها في الحياة العادية، أم لا؟ ولماذا يوجد أشخاص غريبون، وتوجد حكايات غريبة عند بعض الكتاب، بينما الحياة العادية منطقية، وتحمل معاني كثيرة يمكن كتابتها؟، وضرب القارئ مثلا بشخصية واحد يحمل جوالا من الحجارة على ظهره، ويتجول به، وواحدة تلتقط صورة داخل استوديو مع حمار؟ كنت كتبتهما داخل أحد النصوص.

السؤال ليس جديدا بالطبع، وأعني سؤال الغرابة والغرائبية، وكتابة الشخصيات غير السوية، أو التي فيها زوائد غير موجودة في الحياة العادية، ليس بدعة جديدة، لكن هو أولا أسلوب لدى بعض الكتاب، أعتقد أنهم ولدوا به، بمعنى أن الكتابة عندهم لا تحدث النشوة الكاملة لديهم، إلا بجعلها كتابة موازية للواقع، وليس كتابة واقعية صرفة، وفي أثناء قراءتك لرواية من روايات هؤلاء، تجد شيئا غير عادي حدث في منتصف الحكاية، مثلا، أحدهم يتمشى مع حبيبته في شارع هادئ، وفجأة يكتشف الحبيب أنه يمسك بيد نعجة، يفلتها ويحاول الهرب، وتلحق به وتسأله عن السبب في هروبه، وتكون هي الحبيبة نفسها التي رآها نعجة.

مثل هذه الكتابة لا يضع لها الكاتب تفسيرا، وإنما يتركها هكذا في سياق الحكاية الواقعية، ويعرف أنها ستحدث صدمة للقارئ، ما يلبث أن يفوق منها ليتابع الحكاية في مستواها الواقعي، أيضا حين تجد امرأة ريفية بعد هطول المطر، ملاكا يرتجف في فناء بيتها، كما في إحدى قصص ماركيز، فالقارئ سيندهش طبعا من هذه الواقعة، لكنه يتابعها كما يتابع قصة عادية، وتفقد إدهاشها بعد عدة سطور. وفي رواية مثل "بدرو برامو" لخوان رولفو، إحدى أوائل الكتابات في الواقعية السحرية، تجد الموتى يعيشون بطريقة عادية، ويتحركون في الفضاءات، من دون أن يترك لك الكاتب تفسيرا لشيء، هو يتركك متعثرا داخل حكايته، فإما أن تحبها وإما أن تعتبرها مجرد تخاريف. أيضا حين تقرأ لكاتب مثل نيل جايمان، فلا تتوقع أنك ستنجو بقصة عادية تدور أحداثها في البيوت العادية، والشوارع العادية، ويحركها البشر العاديون، هناك شيء خارق دائما، ربما تجده في بداية الحكاية، أو وسطها، أو تنتهي به الحكاية. وبالطبع قراءة مثل هذه التجارب تحتاج إلى قارئ يحبها، لا قارئا يبحث عن ملامح شارع عادي مليء بالبشر والصخب والحياة المتوازنة، أو شخوص يأكلون ويشربون ويثرثرون في أحوال الطقس، والوضع الاقتصادي، وهيمنة الديكتاتوريات، وأطفال يولدون ويكبرون ويشيخون من دون بهار مختلف يرش على طبخات حياتهم. وفي تجربتي الطويلة في كتابة الواقعية الغرائبية، لا أجد نفسي غريبا، ولا أعرف كيف أكتب واقعا صرفا صراحة، إنما هي طريقة ولدت بها، أن أتذوق العالم بطريقة موازية، وبالتالي الكتابة بطريقة موازية. لكن صراحة، الشخصيات الغريبة في كثير من الأحيان، ليست اختراعا صرفا من اختراعات الكاتب، إنما هي موجودة وسط المجتمع، وربما تعود الناس عليها جعلها عادية، وتتبع السياق العادي للحياة، ولا ينتبه لها إلا أشخاص قليلون، ومنهم بالطبع كتاب الرواية والشعراء، لأن هؤلاء لديهم إحساس مختلف، وينتبهون لكل التفاصيل التي تصادفهم.

وخلال عملي الطبي، صادفت هذه الشخصيات الغريبة بالفعل، واستوحيت بعضها في الكتابة، وأذكر هنا شخصية مراد الآسيوي، الذي كان عجوزا ربما في الثمانين، ويعمل صبيا، يقدم القهوة في أحد المجالس العربية، ولا يبدو غريبا أبدا لرواد ذلك المجلس، ولا لزملائه العاملين معه، والمقيمين معه في السكن، على الرغم من أنه يعمل وبيده مسجل كاسيت مكسور وبلا بطاريات، وعلى كتفه حقيبة من الجلد البني المقشر، كانت فارغة، ويضع على رأسه طاقية من الخرز الملون نسجها وحده، أيضا غالبا يرتدي فردة حذاء واحدة، مرة في الرجل اليمين، ومرة في الرجل اليسار، أنا التقطت تلك الغرابة الكبيرة، منذ المرة الأولى التي شاهدت فيها الرجل، وسألت أحد العاملين معه، فقال لي ببساطة، إن الرجل طبيعي جدا في أكله وشربه وجلوسه مع الناس، وهذا" استايل" خاص به.

أنا لن أعتبر ذلك مجرد" استايل"، ولكن يدعم كلامي في وجود الشخصيات الغريبة داخل المجتمع، من دون أن يفكر الناس في غرابتها. شخصية الرجل الذي يحمل كيسا مليئا بالحجارة على كتفه، التي تساءل عنها القارئ، لم أخترعها، وهو رجل صادفته حين كنت أعمل في السودان، رجل عادي، عامل في إحدى الشركات، وكان عضه كلب مرة، وعانى من مضاعفات العضة، والحقن تحت الجلد أيام المصل القديم، الذي كان أكثر من عشرين حقنة، فعبأ كيسا بالحجارة، وأصبح يحمله متنقلا به هكذا، هذا الرجل متزوج ولديه أبناء، وأهل يعيشون معه بعادية مطلقة، من دون إحساس بغرابته.

هناك شخصيات قد لا نعرفها كثيرا في مجتمعاتنا، على الرغم من أنني عرفت واحدا من قبل، وهي شخصيات القتلة المتسلسلين، أي الذين ينفذون عددا من جرائم القتل بنمط معين، مثل الذي يقتل النساء الشقراوات فقط، والذي يقتل العميان فقط، هؤلاء قد تكون لديهم عقد أو مبررات ما، لكن بعيدا عن نشاطهم الإجرامي هذا، ستجدهم عاديين جدا وسط مجتمع لا ينتبه لعيوب فيهم على الإطلاق، ولكن حين يكتبون في الروايات، سيبحث القارئ عن مبرر لسلوكهم، وهذا قد يمنحه الكاتب أو لا يمنحه.

في النهاية، كتابة الغرائبية، مشروعة، والذي لا يتذوقها غير مجبر على متابعتها طبعا، إنما قراءة غيرها وسط أساليب أخرى عديدة.

نظرة على البدايات

سألني أحد القراء، في أمسية حوارية، كانت تضم عددا من القراء، وعددا من طلاب المدارس الذين أتشرف بأن يقرأوا لي من ضمن مقرراتهم:

لقد أعدت كتابة عمل منشور لك من قبل، ونشرته بصيغته الجديدة، وبعنوان مختلف، وبالرغم من أنك نوهت إلى ذلك في بداية الكتاب، إلا أنني أختلف معك، فالعمل المنشور لا ينبغي تغييره.

كان سؤالا طويلا، وبالغ الحساسية، وأعترف أنني لم أجب عليه كما ينبغي، وبدا لي القارئ الذي سأل غير مقتنع بما سقته من مبررات.

ففي عرف كل الناس تقريبا، تظل النصوص الإبداعية المنشورة أعمالا مقدسة، يبدع الكاتب غيرها، لكن يتركها هكذا دليلا على تطوره حين تقارن بأعماله اللاحقة/ تماما كالأبناء، يولدون ويكبرون، ونتابعهم، بالرغم من العيوب الكثيرة في بعضهم، لكن بالطبع لا يمكن إعادتهم إلى الأرحام، وولادتهم من جديد.

هنا بالتحديد ثمة فرق، فالإنسان يخلقه الخالق، بينما النصوص يصيغها مخلوق، ولن تكون مقدسة بأي حال من الأحوال، بالمعنى المعروف للقداسة، إنما يمكن أن تكون البدايات الضعيفة، أو غير المصاغة جيدا، كما قلت، مرحلة تقود إلى النهايات الأكثر تطورا.

حين تقرأ "في ساعة نحس" أو "جنازة الأم الكبيرة"، لماركيز، وتأتي لتقارنهما برواية مثل "الحب في زمن الكوليرا"، ستجد كثيرا جدا من المقاطع التي كانت ستكون أفضل في الروايتين الأوليتين، إذا ما أعيدت الكتابة. فالخيال هناك كان ما يزال في بداية تفعيله، قبل أن ينضج في "مئة عام من العزلة"، ويزداد نضوجا في "الحب في زمن الكوليرا". لكن ماركيز لا يلتفت لذلك، وكل متابعي تجربته لا يودون أن يقارنوا بداياته بنهاياته، سيقال أنها تجربة كبيرة، ومهمة، وبالفعل كانت تجربة كبيرة ومهمة، وتعيش حتى اليوم.

هذا ينطبق على تجارب كونديرا، وإن كان كونديرا صارما جدا في تجربته، وسعى منذ البدايات إلى جعل أسلوبه واحدا. أسلوب فلسفي، بعيد عن العجائبية. وكذا نماذج أخرى لكتّاب تجد أعمالهم الأولى أضعف من الأخيرة، ويوجد بالطبع عند البعض نضج مبكر، بينما آخر الأعمال لا ترتقي لمستوى الأعمال الأولى، هنا نستطيع أن نقول باطمئنان، أن الكاتب قد تعب، وتعبت قدراته.

وفي هذه الحالات، ينبغي أن يدرك الكاتب ذلك، فيتوقف عن الكتابة، كما قلت من قبل، واقترحت سنا للتقاعد، لم يوافقني عليها الكثيرون.

بالنسبة للسؤال الخاص بي من القارئ المتابع، أحب أن أؤكد أنني أعدت كتابة عملين منشورين، وليس عملا واحدا، وكلا العملين نجحا بعد الكتابة الثانية، بينما في الكتاب الأول لم يلتفت إليهما أحد، مما يؤكد أنني لم أخطئ في حقهما، ولم أضلل القارئ حين نوهت إلى ذلك.

الذي حدث أنني قرأت العملين المنشورين، بعد فترة طويلة من النشر، قرأتهما بمزاج قارئ عادي، لا علاقة له بالكتابة، وكانا من أعمال البدايات المحتشدة بالصور الشعرية، وقليل من الدراما. هذه الطريقة تعجب البعض، لكنها في رأيي ليست الطريقة المثلى لجذب القراء الباحثين عن البساطة، وعدم التعقيد. وقد كنت متأثرا بالشعر إلى حد كبير، كل جملة أكتبها هي صورة شعرية، فقمت بكل جرأة بالاشتغال على تلك الجمل وأعدت كتابتها بطريقة أكثر بساطة، فظهرت

الشخصيات بوضوح، وظهرت القصة مفهومة. وقد تمنيت أن أعيد كتابة نصوص أخرى من البدايات، مليئة بالشخصيات الجيدة، لكن الوقت لا يسمح بذلك.

بالنسبة لكتابة السير الذاتية، أو سير المدن والأماكن، هذه أكثر احتمالا لإعادة كتابتها، إن أعاد الكاتب قراءتها بعد سنوات طويلة، ذلك بسبب أن كثيرا من الأحداث والمواقف التي يكتبها أحد ما، لا تكون غالبا هي كل المواقف المهمة في حياته، هناك مواقف أكثر أهمية. لكن لسبب أو لآخر، لا تطرأ على الذهن ساعة الكتابة، وتأتي لتلح بعد سنوات من نشر الكتاب. وقد أعدت قراءة كتاب لي في السيرة مؤخرا، واكتشفت أنني أغفلت ذكر مثل هذه المواقف، وإن ألحت عليّ تلك المسألة، سأعيد كتابة تلك السيرة بلا أي تردد.

لقد رددت على القارئ بكلام مشابه لذلك، وذكرته بأن كثيرا من القراء المتمكنين يكتبون في مراجعاتهم للكتب جملا تحريرية، باعتبار أن الكاتب أغفل شيئا وكان يمكن أن يضيفه. الكاتب لا يقول شيئا عند قراءة تلك الملاحظات، وربما لا يقرأها أصلا إلا لو أرسلت له شخصيا، فموقع مثل غودريدز، قد يهم القراء، لكن قليلا من الكتاب من يمر به.

إذن لو التفت الكاتب بنفسه إلى عيوب أو نواقص في نصه، وأراد إكمالها، ونوه إلى ذلك، ماذا يضير القارئ؟ هو ليس ملزما باقتناء الكتاب في صورته الجديدة بلا شك.

موضوع مشابه، وهو تغيير العنوان الخاص بكتاب بعد صدوره بفترة، في طبعة جديدة. هل هذا مشروع؟ وليس تضليلا للقارئ؟

أعترف أن تغيير العنوان يضايقني فعلا، وكم من مرة اشتريت كتابا أملكه بالفعل، حين عثرت عليه بعنوان أخر، ولم أنتبه لذلك، وجاء يوم غيّر فيه ناشر عنوان كتابين لي، في طبعتين جديدتين ولم يخبرني، أو ربما أخبرني قبل النشر بفترة قصيرة، واضطررت لكتابة أسطر عدة على صفحتي في فيسبوك منوها إلى ذلك.

المهم في كل تلك الأمور، مصارحة القارئ، فهو العمود المهم في مسألة الكتابة، والكتابة موجهة إليه قطعا.

القصة القصيرة وجائزة الملتقى

في فبراير 2025، أعلنت في الكويت، نتيجة الدورة السابعة لجائزة الملتقى للقصة القصيرة، تلك المسابقة العظيمة التي أنشأها الأديب الكويتي طالب الرفاعي منذ حوالي عشر سنوات، وأصبحت في سنوات قليلة، الجائزة الأكثر أهمية، والأكثر استقطابا لكتاب القصة القصيرة في الوطن العربي، وحتى في أوروبا وأمريكا.وكانت الجوائز عموما تختص بالرواية في معظمها، وهناك جوائز للشعر، وإن كانت ثمة جوائز للقصة فهي قليلة، وليست فعالة مثل جائزة الملتقى. فكرة الجائزة واسمها استوحاها طالب من ندوة الملتقى، التي تعقد أسبوعيا في بيته منذ فترة طويلة، وحتى الآن، كما أظن ويحضرها الكتاب الجدد جنبا إلى جنب مع الكتاب المخضرمين، وهناك مجاميع قصصية وروايات، وقصائد عرضت على أعضاء المنتدى، ونوقشت بجدية واهتمام، قبل أن ترسل إلى النشر، مما يميزها كثيرا.

إذن نواة الجائزة كانت موجودة، ثم جاءت الفكرة التي تبنتها الجامعة الأمريكية في الكويت أولا، ثم ذهب تبنيها لجامعة أمريكية أخرى، وكلا الجامعتين، ساهمتا بشكل فعال في نشرها، والجائزة نفسها أضافت تميزا للجامعتين بلا شك، في فترة تبنيهما لها، ومع هذه الدورة، ستؤول رعاية الجائزة للمجلس الوطني للثقافة والفنون، وبالفعل كانت دورة مميزة من ناحية التنظيم وحفل إعلان الفائز، وما تلا ذلك من ندوات، ونحن نأمل استمرارية الجائزة بهذا المستوى، وأن يخصص صندوق خاص بالدعم، نشارك فيه كلنا، بسبب أنها جائزة رائدة، أحيت مجالا فنيا، كاد أن يندثر، ولفتت الأنظار كثيرا.

حسب الإحصائيات هذا العام، قدمت للمسابقة مئة وثلاث وثلاثون مجموعة قصصية بعضها من كتاب لهم إسهاماتهم في المجال، وبعضها من كتاب شباب ربما يكتبون لأول مرة، وطبعا لكل كاتب رؤاه الخاصة، وتجليه من عدم تجليه في الكتابة، وبالطبع في مثل هذه الجوائز الكبرى، تكون المنافسة شديدة، والذين يفوزون إنما يفوزون بعد تدقيق كبير. هذه المشاركات الكثيفة، تؤكد أن الرواية ليست وحدها ملكة، في مجال السرد، هناك كتاب مخلصون للقصة القصيرة، يدللونها أيضا وينفقون الوقت في تطويرها، واكتشاف مداخل جديدة فيها، ولم يكتبوا غيرها أبدا، أي لم ينساقوا لجاذبية الرواية وإغوائها الذي شد حتى ربات البيوت، ليكتبن تجاربهن روائيا، وأشخاصا لم يكونوا يعلمون شيئا عن الكتابة، ليكتبوا، وبعضهم نجح بالفعل. وكان الكاتب المصري الراحل سعيد الكفراوي شديد الإخلاص للقصة، لم يكتب غيرها حتى رحل، وأعتقد أنه كان بإمكانه كتابة رواية، لكنه لم يفعل، كذلك يوجد محمد خضير في العراق، وأنيس الرافعي في المغرب وأحمد الفضل في السودان وغيرهم من مبدعي القصة المرابطين في محرابها. أيضا يوجد قصاصون كتبوا رواية أو روايتين، لكن قلبهم وقلمهم، عند القصة القصيرة مثل الكاتب الأردني محمود الريماوي، صاحب النصوص الرشيقة دائما. كما يوجد روائيون مهمون أجادوا في القصة القصيرة أيضا، أمثال محمود الرحبي وعاطف الحاج سعيد، وأحمد مجدي همام، لذلك ما فعلته جائزة الملتقى في دوراتها السبع، أنها أيقظت كتاب القصة القصيرة من سباتهم، وشدت الذين لا يكتبونها عادة، وهذا ما نرجوه في الجوائز دائما. أن تحرك الراكد في الشأن الثقافي، وتثير بعض اللغط الجيد.

ومعروف أن جائزة البوكر في الرواية هي الأكثر حيوية من ناحية جذب الكتاب والقراء على حد سواء، وعلى الرغم من وجود "كتارا" والآن "القلم الذهبي" في السعودية، لكن اللغط يثار فقط حين تظهر قوائم البوكر الطويلة والقصيرة. وإذا تأملنا القصص القصيرة التي تكتب الآن، هل نجد تطورا في التقنية، عما كتبه السابقون؟ أم استمرت بالنهج نفسه، مع تغير المواضيع طبعا بناء على تطور المجتمعات وامتلاء العالم بأحداث جديدة مهولة، يمكن الاستفادة منها في القص مثل، الحروب، والنزوح، ومحاولات السفر المغامر، وغير ذلك؟ حسبما قرأت من مجموعات قصصية حديثة، أجد تطورا كبيرا بالفعل في بنية الحكاية، وسرد الأحداث والاستفادة من الأساطير والموروثات الشعبية، إضافة إلى ما ذكرته من مواضيع جديدة، تماما مثلما استفادت الرواية، وبعض القصاصين الذين يحبون أن يظلوا كتاب قصة قصيرة، بعيدا عن فوضى

الرواية، يستطيعون أن يضمنوا قصصهم رواية كاملة في عدة صفحات فقط، ولا بد من الإشارة بمنجز المصري سمير الفيل، التي تعتبر معظم قصصه حكايات شاملة تغني عن قراءة الرواية.

حين كنت أدرس في مصر، وأيام كتابة الشعر، أي قبل أن أتجه للرواية، تعرفت إلى كاتب قصة موهوب، كان يقيم قريبا مني، وأصبحنا نلتقي باستمرار، مع عدد من كتاب وشعراء طنطا، حيث أقيم، وكنا نسافر معا الى القاهرة لنشر إنتاجنا في الصحف والمجلات آنذاك، هذا القاص واسمه فوزي شلبي، كان يعمل في إدارة البريد، ويتميز بنشاطه وتقدمه في الكتابة، وأذكر أن له قصة اسمها "الأنتوبي وحماره والطوفان"، نشرت في مجلة "إبداع" آنذاك، ونالت شهرة كبيرة. فوزي للأسف لم يعش طويلا ليبدع، ولا أدري هل نشرت أعماله في كتب أم لا؟ لكن كان كاتبا حقيقيا للقصة القصيرة، أضاف إلى معمارها، ولم يجرها الى الاختصارات المخلة، أو الومضات الشعرية التي تكتب الآن بدعوى الحداثة. أيضا عاصرت إبراهيم فهمي، الذي كان أبرز أبناء جيلنا، في كتابة القصة القصيرة، ورحل مبكرا أيضا.

إذن كانت جائزة الملتقى فرصة كبيرة للتوقف قليلا عن قراءة الرواية، وتأمل ما أبدع كتاب القصة القصيرة، لذلك أكرر أمنيتي أن تستمر هذه الجائزة لتقدم لنا وجوها جديدة من كتاب القصة، في كل عام.

بقي أن أقول إن مؤسس جائزة الملتقى طالب الرفاعي، من الشخصيات الثقافية المهمة في أيامنا هذه، ويمكنه أن يؤسس ويدير أي نشاط ثقافي بنشاط واقتدار.

مدارس الكتابة

دار نقاش كثيف مؤخرا، حول نوع الأدب المنتشر الآن، خاصة في أوساط الشباب، وأنه مجرد أدب سطحي، يفتقر للموضوعية والعمق والرقي، ويؤثر كثيرا في تلقي الناس للآداب الراقية، حين ينتشر بهذه الكثافة.

في الحقيقة علينا الاعتراف أولا بأن الآداب والفنون لم تعد من النكهات المفضلة التي يتعاطاها الناس هذه الأيام، بسبب ما تحدثنا عنه كثيرا من عدم استقرار سياسي واقتصادي في كثير من الدول العربية، وتركيز المواطن في هذه الدول، على البحث عن الأمن أولا، ثم لقمة العيش ثانيا. وإذا أضفنا عامل الحروب وما يسببه من دمار شامل في البنى التحتية، نجد أن الصحة أيضا في تدهور، وبالتالي لا فائدة من القراءة، ولا فائدة من المعرفة حتى إن كانت ثمة معرفة ستجنى من وراء القراءة، وحقيقة لا ميزانية للكتب.

لذلك كان استغرابي كبيرا حين خاطبني أحد الشباب، ليخبرني عن تكوين جماعة للقراءة في السودان، هدفها إنشاء مكتبات عامة في الأحياء المختلفة لمدينته، وذلك لتشجيع الناس على القراءة، وأنهم يودون دعم الذين همهم الكتابة والقراءة. وقد رددت عليه بأنني أشجع ذلك النشاط تماما، وبالطبع أود دعمه بما أستطيع، لكني أتساءل عن المواطن الذي سيقرأ؟ كيف سيوجد؟ وكل ما حوله دمار، الماضي لم يعد ماضيا يسر الذكريات أن تستعيده، والحاضر كما هو حاضر بائس جدا، والمستقبل لا يمكن تذويقه بأي لون من الألوان المبهجة، بأي حال من الأحوال. وحتى إن استطاع هذا النشاط استقطاب أحد في النهاية، فليس لزمن طويل، لأن ما ينتظر القارئ المفترض، من مطبات الحياة الراهنة، كثير جدا.

هذه ليست نظرة تشاؤمية، ولا محاولة لإلغاء عادة القراءة، لأن القراءة موجودة في أي عصر مهما كانت مآزقه، وهناك أشخاص يقرأوون تحت القصف، وعلى أضواء الشموع، وفي أي بقعة يعثرون فيها على شيء من الأمل.

لذلك كله، سنحتفي احتفاء كبيرا بالأدب الذي يشد الشباب نحو القراءة، في هذا الزمن، حتى لو كان أدبا عاديا بلا لغة معقدة ولا عمق فكري، وإنما فنتازيا وأساطير، وشيء من السحر والجنون.

والفنتازيا صراحة ليست أدبا سيئا، وهناك كتاب كثيرون في أمريكا، وأوروبا، يكتبونها بحرفية عالية، وتندمج في عالمها ولا تحس حتى ينتهي الكتاب. وحين تقرأ مثلا رواية "المحيط في نهاية الدرب" لنيل جايمان، لا تحس بأي فرق بين الواقعي والأسطوري. هو يكتب لك قصة عادية جدا عن أطفال يلعبون في حي ما، ويعثرون على شيء غريب، يتضح أنه غلاف لمجهول يحملهم بعيدا. وترى موتى يعيشون بعادية مع الناس، وأشياء كثيرة غريبة لكن لا تستطيع بترها من لحمة النص، ولا نبذها، ولا الخوف منها أيضا.

الواقعية السحرية فيها أشياء مثل هذه، لكن في رواية الفنتازيا توجد اختراعات خاصة بالكاتب، مثل اختراع نباتات غير موجودة، وماركات عطور غير موجودة، وحتى سيارات تسير بشيء آخر غير البنزين والكهرباء، وكثير من الحيل الأخرى التي اعتبرها جاذبة للقراءة.

لو نظرنا إلى رواية "هاري بوتر"، للإنكليزية رولنغ، أكثر الكتب انتشارا في تاريخ القراءة، سنجد فيها هذه الغرائب كلها، وسنندهش منها كلما قرأنا جزءا جديدا. وشخصيا لا أحس بأي خجل من القول بأنني قرأتها واستمتعت بها، ولا أحس بأي استغراب من تزاحم الناس بجانب المكتبات، كلما أعلن عن صدور كتاب من هذه السلسلة.

طيب، هل الأدب الراقي الذي يحتفي بالتاريخ، والفلسفة، وجذور المجتمعات، هو أدب جامد، ويخلو من الفنتازيا في بعض مقاطعه؟

بالطبع لا، في كثير من النصوص التي كتبها متمكنون أمثال هاروكي موراكامي، وعندنا في العربية صبري موسى في روايته "فساد الأمكنة" التي أعتبرها من عيون الأدب العربي، بالرغم من أنها لم تنتشر وسط الأجيال الجديدة من القراء. أيضا ما كُتب عن أساطير النوبة ومجتمعهم في مصر، مثل رواية محمد خليل قاسم اليتيمة "الشمندورة"، وحتى رواية مثل "طرف من خبر الآخرة" للكاتب المصري الراحل عبد الحكيم قاسم، بالرغم من أنها أدب شديد الرقي، لكن لديها جانبها الغريب أيضا.

هناك ما يسمى الأدب التجاري، في أوروبا وأمريكا، وهو أدب قائم على الإثارة بمختلف أنواعها، لكنه أدب مشروع، ونجد في إعلانات الوكلاء الأدبيين الذين يروجون للكتاب، من يكتب أنه يقبل الأدب الراقي، ومن يكتب أنه يقبل الأدب التجاري، ويعرف هؤلاء الوكلاء، ونعرف كلنا أن كلا من النوعين، له زبائنه الذين يحتفون به.

وحين تقرأ للصينية وي هيوي رواية مثل "الزواج من بوذا"، ستجد كثيرا من المقاطع الجنسية، والأحداث المثيرة، ولن تعثر على لغة شعرية أو مقاطع مصاغة بطريقة أدبية. هنا إما أن تستمر في القراءة، أو تترك الكتاب، وقطعا هناك من يستمر، وربما هناك من لا يستمر، وفي النهاية لن تقول إن هذا ليس أدبا، إنه أدب فقط تجاري، ويعشقه الكثيرون.

منذ سنوات، كنت في الخرطوم، وكنت عائدا إلى قطر، وفي المطار التقيت بأحد الشباب، وكان يحمل في يده رواية اسمها "أدب رخيص" لشارلز بوكوفسكي. وقف الشاب معي في أحد الأركان، وسألني: هل قرأت هذه الرواية من قبل؟ قلت قرأت لبوكوفسكي، لكن هذه الرواية لم أقرأها. أهداني إياها، وكتب لي إهداء على الصفحة الأولى الداخلية، حملتها في يدي، ودخلت بها الطائرة، وبدأت أقرأها وكانت أقرب للسوقية في لغتها وتعاملها مع الإنسان، خاصة المرأة. لكنني لم أستطع تركها وظللت أقرأ طوال الرحلة، وفي مطار الدوحة أثناء إنهاء إجراءات السفر، وفي بيتي حتى اليوم التالي، رواية سوقية جذابة جدا، وأيضا هنا أقول، إنه أدب مختلف، ولكنه أدب في النهاية.

لنكتب إذن أدبنا الراقي الذي قد لا يكون مفضلا لدى الجيل الجديد من القراء، ونترك الآخرين يكتبون تجاريا، ولن نخسر بانجذاب الناس للقراءة.